مجتبى اللاري

دراسة
في
المشاكل النفسية والأخلاقية

دار الصفوة
بيروت - لبنان

دراسة

في

المشاكل النفسية والأخلاقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

دار الصفوة

بيروت ـ بئر العبد ـ الصنوبرة ـ مقابل سنتر داغر ـ بناية دياب مهدي

ت: ٨٢٣٥١٨، ٨٢٢١٦٧ داخلي ١٤ ـ تلفون دولي: ٠٠٣٥٧٩٥١٤٣٦٤

فاكس: ٠٠٣٥٧ ٤٦٢٥٨٤٨ ص. ب ٦٣ / ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

الإهداء

أهدي كتابي هذا إلى روح والدي
المرحوم آية الله السيد علي أصغر
اللاري (قده) الذي كان :
« رجل العلم والفضيلة والأخلاق »

المؤلف

الأخلاق والشباب

خطوة أخرى في سبيل مكافحة الفساد :

نحن نعرف أشخاصاً وأمماً كانوا يعيشون بظاهر الحال في أوضاع متشابهة ، ولكن كان يبرز من بين هؤلاء شخص أو أمّة ترقى سلّم التقدم بسرعة مدهشة يعجب بها الجميع .

فالبسطاء الذين اعتادوا أن لا يفكّروا ، حيث لا يجدون سبباً لهذه الموارد يلجأون فيها إلى « الحظ والنصيب » أو « الصدفة والاتّفاق » ونحوها ، وحينما يقفون أمام مثل هذه المشاهد يحسّون في قرارة نفوسهم باليأس فيأسفون ويقولون « رزقنا الله النصيب » « يا ترى كيف تعمل الصدفة عملها » ؟ « عجباً لهذه الحياة أترى كيف تخرق الشروط والأسباب » .

« ما خلت أن لدهر من عاداته
أن لا يكون الحظ بالأسباب »

في حين أنّا لو فكّرنا قليلاً لوجدنا أن لا « نصيب » هنا ولا « صدفة » ولا أن الأسباب والشروط قد انخرمت بل نجد وراء هذه المشاهد الظافرة الموفّقة ، أو المنتكسة الخائبة عوامل مختلفة متعددة ، أهمها « العامل الخلقي » .

وللمثل نقول أنّ « المانيا » التي أمست بعد الحرب العالمية الثانية حفنة

رماد نجدها وقد أصبحت اليوم إحدىٰ الدول الصناعيّة العامرة . ويقول ذوو الخبرة ليس السبب في ذلك أنّ الألمانيين أذكى منّا ، ولا أنّ لهم من القوى والصلاحيّات ما ليس لغيرهم ، بل أنّ السبب الأهم في تقدمهم هو الإحساس بالمسؤولية وحسن الانضباط ! وهما صفتان أصبحتا من الخصائص الأخلاقيّة العامّة فيهم .

وهنا نجد أمر الأخلاق في تقدم الأمّة ـ أيّة أمّة ـ بصورة من الوضوح نستطيع معها أن نقول ـ أحياناً ـ أنّ كلّ ما لهم من التّقدم حتّى المادي والصّناعي فإنما هو من آثار أخلاقهم .

وهنا نجد الشاعر يقول :

« وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا »

كان هذا المثل نموذجاً صغيراً لتأثير الأخلاق في التوفيق في ناحية خاصة من الحياة .

ولعلّه كان هناك في التاريخ أدوار من الحياة البشرية كان يشكّ فيها في تأثير الأخلاق في الحياة الإجتماعية ، أما اليوم فإنّ تأثير الأخلاق في حياة الأمم من الوضوح بمكان لا يبقى معه أيّ مجال للتشكيك في ذلك .

***

ومن ناحية أخرى نجد أنّ شخصية أي إنسان وقيمته تبتني على صفاته وملكاته العالية ، فالإنسان بصفاته وملكاته العالية يستحق إسم الإنسانية ، وبدونها لا يزيد شيئاً على الحيوانية .

إن أهم القيم الإنسانية يجب أن نبحث عنها في الخصائص الأخلاقية للأشخاص ، ويجب أن لا نغفل عن أننا إنما نستطيع أن نحصل على هذه الصفات الإنسانية العالية عن طريق تربية الروح بالطرق التربويّة الخاصة ، النفسية والأخلاقية ، ولهذا نجد أن علماء الأخلاق وكذا علماء علم النفس الحديث عنونوا أبحاثاً عميقة ومفصلة اعتمدوا فيها على النواحي العملية في

كيفية الوقاية ومكافحة المفاسد الأخلاقية وكيفية تحصيل الصفات والروحيات الإنسانية العالية .

وعلى رأس هؤلاء العلماء وفي مقدمتهم تقدم أئمتنا ـ الذين كانوا هم أعلم المعلمين وأزكى المربّين الأخلاقيين ـ بأوامر أخلاقية عميقة لتربية الملكات الفاضلة في الإنسان ، أضف إلى أقوالهم في هذا المجال أنهم كانوا يدرسون البشرية بأعمالهم وسيرة حياتهم دروساً نستطيع نحن أن نعيش في ظلها أناساً سعداء ذوي قيم .

* * *

وما أكثر الذين يتألمون كثيراً من ضعفهم في الأخلاق ، ولكنهم لا يجدون إلى معالجة ضعفهم في أخلاقهم من سبيل .

إن هذا الموضوع يهم الشباب على الخصوص أكثر من غيرهم ، إذ أنَّ لهم إحساساً أقوى في مسائل الحياة ، وأخص بالذكر منها المسائل التي تمس شخصيتهم .

ونأسف أنّ الكتب الجيّدة المفيدة التي كتبت لتكون دليلاً فكرياً وعملياً للشباب في هذا المجال قليلة جداً ، والموجود منها ليس بلغة العصر ، ونحن كنا نفكر في تقديم كتاب قيّم في هذا المجال إلى شبابنا الأعزاء .

ومن حسن الحظّ أنّا قد وفّقنا أخيراً لهذا العمل ، فقمنا بنشر هذا الكتاب الذي قدم إلينا من قبل المؤلف ، والذي يتكفّل بتحليل أهم المسائل الأخلاقية ، بأسلوب جيد ، يجمع بين آيات من الذكر الحكيم ، وأحاديث من الرسول العظيم ، وأخبار عن الأئمة الأطهار ، عليهم السلام .

وهذا الكتاب حيث كتب بقلم واضح وجميل ـ بالإضافة إلى المزايا الأخرى ـ فهو موضع استفادة مختلف الطبقات ، مع ما له من القيمة العلمية . ولهذا فإننا ندعو دعاة الإصلاح الاجتماعي إلى مطالعة هذا الكتاب المفيد ونحن واثقون بأنه خطوة عالية في سبيل مكافحة الفساد المذهل الذي شمل قسماً كبيراً من المجتمع اليوم .

ونحثّ شبابنا الأعزاء بالخصوص على مطالعة هذا الكتاب حيث أن لهم

الإستعداد الكامل لتقبل الصفات الإنسانية العالية ، تلك الصفات التي يمكن أن تكون لهم رمز الفخار والتوفيق إلى نهاية أعمارهم .

المجمع العلمي لإنقاذ الشباب
قم المقدسة ـ ايران
شتاء عام ١٣٨٧ هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ كل إنسان في هذه الحياة يطلب « السعادة » والرفاه لنفسه ، ويسعى للحصول على هذه الأمنيّة في ميدان الحياة ليل نهار ، ويستمرّ في سعيه المتواصل في هذا الميدان الذي يشبه كثيراً ميدان الحرب ، ويتقدم في هذا الميدان حتى إلى حدّ التضحية بالنفس ، كل ذلك أملاً في أن يحلق طير السعادة بأجنحته على رأسه ، فيعيش في ظلّه بقية عمره القصير بعيداً عن القلق والاضطراب .

ونأسف أنّ نرى كثيراً من الناس الذين لهم من الإمكانيات التي تؤهّلهم أن يعيشوا عيشة راضية مرضية ، وكأن هناك عوامل خفية تجعل أرواحهم لعبة للإضطراب وفقدان الأمان ، فكأنها تجعل عليهم السعادة الواقعية غير ممكنة الحصول ، ولا شيء في النهاية سوى السقوط بين أمواج الهياج والألم بروح خائبة منكسرة إلى هوّة الفناء والعدم .

وليست هذه الخيبة وهذا الاضطراب إلّا لأنهم اختاروا الأوهام على الحقائق ، و « لم يستضيئوا بنور الحق ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » في صراط الحياة . إنّ ألوان الخيال التي ترتسم على آفاق أفكار الناس تقذف بهم في بحر من الأمواج والإضطرابات ، وإن أهدافهم الدنيئة وآمالهم غير المحدودة هي التي تخرجهم « من النور إلى الظلمات » وتجعلهم في حيرة من أمرهم في مآزق الحياة .

إنَّ الإنسان الذي هو أثمن بضائع الحياة موجود مركب من قوّتين متمايزتين هما « القوة النفسية » و « القوة الميكانيكية » ، فهو بالإضافة إلى ما له من أوصاف يشارك فيها الحيوان من حيث المادة ، له حاجات معنوية كثيرة إذا أدى متطلباتها بلغ بها إلى كماله النهائي ، وكلما كان أحد هذين الجناحين في الإنسان أقوى من الآخر كان الجناح الآخر أقرب إلى الضعف والهزيمة أمامه .

إنَّ الصناعة اليوم قد غيرت معالم الحياة ، وإنَّ الكمال الصناعي والتحول المذهل في جميع شؤون الحياة أوضحت كثيراً من الغوامض وحلّت كثيراً من المشاكل ، وأصبح كثير من نواحي الكون ميداناً لتجوّل الانسان ونفوذه من أعماق البحار والمحيطات إلى أقطار السماوات . وإلى جانب هذا التقدم العلمي وتركيز القوى والأفكار على الأمور المادية ضعفت أسس الإيمان في إنسان اليوم ، « وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » في مختلف شؤون الحياة ، وارتفعت أرقام الجرائم والجنايات والفجائع اللاإنسانية إلى أعداد هائلة . وضعفت عوامل الصلاح أمام مظاهر الفساد والضياع في المجتمع واحترقت بقايا المعنويات بين نيران الشهوات والرذائل والأرجاس .

نرى اليوم جهاراً أن « الفضل » غالب على « الفضيلة » فقد تجهز الإنسان بقوى العلم والصناعة بينما نرى الفضائل الأخلاقية التي يجب أن تحرس روحه من الهلاك قد تحطمت تحت وطأة أقدام شيطان الهوى والشهوات ، وحتى العواطف الإنسانية أصبحت تنازع الروح بين الموت والحياة .

فالكذب ، والحرص ، والنفاق ، والظلم ، وحب الجاه ، وسائر الرذائل الأخلاقية ، التي يشكل كل واحد منها سداً منيعاً في سبيل التكامل الإنساني وسعادته ، قد كبلت يدي الإنسان وألقته في لجة من التلوث المشين . إن انفلات حبال « الوحدة » ، والآلام الفردية والإجتماعية ، وبكلمة موجزة جميع أنواع الشقاء والآلام ، إنما هي من سقوط الفضيلة المعنوية في الإنسان . إن هذه حقيقة مرة وهي لو سلب من الإنسان إمكانية الاستفادة المادية لما كان له في هذا الكون الرحيب سناد يستند إليه أو يعتمد عليه ، ولخيمت على قلبه ظلال اليأس وفقدان الأمل بأقلّ قليل من ضغط مكروهات الحياة ، وفقد من نفسه قوة المقاومة أمامها . إن علماء الأخلاق وعلم النفس لا يعترفون بتحقيق الإنسانية

في الإنسان إلّا إذا وجدت فيه الملكات الفاضلة والمزايا الروحية ، وحصل على ملكة الإعتدال بين صفاته وعواطفه ، فإن الخلق المعنوي هو الذي يمنع الإنسان من الميل عن الإعتدال ، فيصعد بالإنسان إلى أوج العظمة ونقطة الكمال اللائق للإنسان .

* * *

إنّ الأشخاص الذين ظهروا بين المجتمع البشري فسجل التاريخ أسماءهم بحروف كبيرة وخطوط عريضة إنما كانت شخصيتهم من نتاج مميزاتهم المعنوية وملكاتهم الطاهرة الأخلاقية . وإنّ المجتمع الذي لا يتسلح « بسلاح الأخلاق » الفاضلة ولا تسوده التعاليم الإنسانية لا يستحق الحياة . إن انقراض الحضارات الكبرى التي سادت البشرية مدة من الزمان ثمّ بادت لم يكن على أثر فساد نظامهم الإقتصادي فحسب ، بل أن انعدام المعنويات والأخلاق بينهم هو الذي جرّهم إلى هوّة السقوط والعدم ، إذ أنّ تضعضع أركان الفضيلة والمعنوية أعظم أثراً من الحوادث والزلازل في تحطم المجتمع وضياعه .

إنّ القوانين والأنظمة الوضعية البشرية لن تتمكن من أن تنفذ إلى أعماق روح الإنسان ، ولا أن تربط بين الأمم والقوميات المختلفة والمجتمعات البشرية بنوع من الوحدة برباط معنوي أخلاقي . إنّ القوانين الوضعية التي هي وليدة الفكر البشري ليس لها صلاحية أن تؤمن السعادة الكاملة للإنسان ، وذلك لأنّ البشر محدود في أفق تفكيره فلا يحيط بروابط ظواهر الحياة فضلاً عن خفاياها ، وحتى لو علم بها فإنه يتأثر بعوامل مختلفة تبعده عن الحقيقة والواقع ، ولذلك نراها قد اتسمت دائماً « بالموقت » فهي تتحول بمرور الزمن وتتغيّر بتغيّر الظروف والأوضاع ، بل أن ظهور الفساد والشقاء بأنواعه ، الذي أخذ بخناق البشرية اليوم ، ليس إلا رد فعل لما في هذه القوانين والبرامج الموجودة من نقائص وعيوب .

أما مدرسة الأنبياء المقدسة التي تستلهم من المنابع العالية الأنوار الوحي والإلهام والإشراق الروحي الخاص ، والتي تستند إلى العلم الإلهي اللامحدود ، فهي بعيدة عن أمواج الإنقلاب أو التحول أو التغيير ، فهي بفضل علمها بروابط ظواهر الحياة وحقائق الوجود تقدم للبشر أسمى البرامج للتكامل

الإنساني وتهذيب النفس وإصلاحها ، وتدعو الإنسان إلى أن يتجه بروحه إلى الأعلى . إنّ نتائج التدين في الإنسان وآثار هذه القوة المعنوية ، الجلية والسريعة والعميقة في صيانة المجتمع واتزانه ، من الحقائق المسلمة التي لا تقبل الجدل والإنكار ، فإنّ من الواضح أنه ما لم يخلق في الفرد وازع ورادع من نفسه يردعه عن شهواته وميوله ، ويحدد من إرادته ، ويجعله يحس بمسؤولياته وتكاليفه ، فإنّ أيّ تقدم في سبيل الإصلاح سيواجه بالفشل وخيبة الأمل . فلا سبيل إلى تأسيس تمدن إنساني كامل آمن وسعيد إلاّ أن يجهز الانسان بالمعنوية والأخلاق .

إن أسس الدين الإسلامي الخالد التي أسست « من أول يوم على التقوى » على يد أكبر شخصية أخلاقية في التاريخ (صلى الله عليه وآله وسلم) هي أسس السعادة والراحة والهناء والرفاه في الحياة الدنيا فضلاً عن أنها وسيلة للسعادة في الحياة الأخرى ، إنّ الدعوة الإسلامية قد بني أساسها على رفع قيمة الإنسان المعنوية برفع مستوى عقيدته إلى سلسلة من العقائد الطيبة الطاهرة ، ورفع مستوى خلقه إلى الملكات الفاضلة ، فهو يرى ملاك الإنسانية في المزايا الروحية السامية ، والسجايا الإنسانية الطاهرة . إن الإسلام يمنع الإنسان منعاً باتاً من أن يضحي بالفضائل في سبيل ميوله وشهواته ، ويحارب الذين يدنسون شرف الإنسانية ويضعضعون أساس حسن التفاهم العام ، بشدة لا هوادة فيها . إنّ المجتمع الذي تتعين روابطه الفردية والإجتماعية على أساس الإسلام يظله الصفاء والهناء ، والثقة المتبادلة في جميع شؤون الحياة ، ويربط أفراده بعضهم ببعض أسمى الروابط الإنسانية المتكافئة ، ويكون لجميعهم أمام قوانينه حقوق متساوية ، وبالاستيحاء من هذه الوحدة المعنوية والمناهج والبرامج والتعاليم المتكاملة يمكن أن يحدث في مختلف المجتمعات والأمم والعناصر نهضة تربوية عظيمة تضمن السعادة الكاملة لجميع المجتمعات .

* * *

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القرّاء الأعزّاء كتبنا سلسلة من المواضيع الأخلاقية التي تصور لكم قسماً من تعاليم الإسلام الأخلاقية الثمينة .

إن في الكتب الأخلاقية والآثار المدونة في « الحكمة العملية » التي أثرت

لنا من كبار قدمائنا خزائن ثمينة ، يوجد فيها نثر من الجواهر النفيسة ولكنها على أثر تقدم الزمن فقد أسلوبها ما كان فيه من الطراوة والحلاوة ، وهي ـ من ناحية أخرى ـ كانت مبتنية ـ في الأكثر ـ على « قواعد نظرية » ولذلك فهي لا تقع اليوم موقع الاستفادة إلّا نادراً جداً .

وقد سعى الكاتب في هذا الكتاب أن ينظم المواضيع الأخلاقية في أسلوب الكتابة العصرية المبسّطة ، بعيداً عن المصطلحات غير المفهومة ، وبالإضافة إلى المواضيع الأخلاقية تطرق إلى قسم من المسائل النفسية والروحية التربوية بالتحليل العلمي الحديث ، عارضاً آراء علماء الغرب على الأحاديث والنصوص الدينية ، وكلمات أئمة الدين التي سبقوا ببيانها علماء الغرب ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

ومن المناسب أن أضيف هنا نقطة أخرى فأذكر أن قسماً من هذا الكتاب كان قد طبع ونشر تدريجياً في أعداد من المجلة الدينية والعلمية الموقرة « مكتب إسلام » التي تطبع باللغة الفارسية في قم المقدسة . ولا أريد أن أشرح هنا خصائص هذه المجموعة من المقالات الأخلاقية والنفسية ، وبإمكان القراء الكرام على أثر مطالعتهم للكتاب أن يصدقوا ما أبداه بعض ذوي الخبرة في هذا المجال فقال « إنَّ هذا الكتاب الأخلاقي بهذا الأسلوب جديد جداً » وحينئذ يدركون جدّة أسلوبه . والرجاء أن نتمكن ـ بالتوجه إلى نصائح ومواعظ وإرشادات وكلمات كبراء الإسلام وعلماء الأخلاق ـ من أن نتقدم في طريق إصلاح نفوسنا خطوة سريعة إلى الأمام ، وأن نحرّر أرواحنا من الارتماس في أرجاس الغرائز المحطمة ، لكي نطمئن إلى سعادتنا الحقيقية بهذه الطريقة .

السيد مجتبى الموسوي اللاري
قم المقدسة ـ ربيع عام ١٣٨٧ هـ

سوء الخلق

★ ما للمحبة من ثمن .
★ سوء الخلق ينفر الناس .
★ رسول الله أسوة وقدوة

إنّ الحب أحد الإحساسات الطبيعية للإنسان ، ولهذا فنحن نرى أنّ في الإنسان قوّة خفية تدفعه إلى تعلق قلبه بالآخرين من أبناء نوعه ، ولا يمكن أن يضادّ هذا الميل الناشىء من ذلك الإحساس الطبيعي ، وعلى هذا فيجب أن تشبع هذه الحاجة الغريزية فيه ، فيقرر كل فرد مع جماعة من أبناء نوعه روابط أخويّة لكي يستفيد من الأنس بهم والتآلف معهم .

إنّ المحبة منبع الأمن والطمأنينة ، وهي من أحسن اللذائذ الرّوحية التي تتقوى على مرّ الأيّام وتتكامل ، ولا نجد في هذا الفضاء الرحيب شيئاً أثمن منها .

وإنّ ألم الوحدة والغربة وفراق الأحبة من أشدّ المصائب . إنّ المودة لو لم تربط روحنا بأحد لكي يأوي روحنا إلى روحه فإننا سوف نقع لعبة بيد القلق والاضطراب ، ويظلم علينا عالمنا الموجود . يقول أحد العلماء « أن سرّ السعادة في أن تكون روابطنا مع عالمنا روابط أخويّة لا عدوانية ، فإنّ من لا يستطيع أن يحب أبناء نوعه في الطبيعة لا يستطيع أن يمتلك حياة فارغة من القلق والاضطراب » .

إنّ المناسبات التي تربط المجتمع بعضه يبعض على أحسن الوجوه هي

الروابط التي تستند على أصول العاطفة والمودّة الواقعية . إنّ توافق الرّوحين هو الذي يؤلف بينهما في عوالم الوحدة والمحبة ، ومن هنا تتأسس أسس المودّة السعيدة ذات الرونق البهيّ . ولأجل أن يدوم وصل حبل المودّة لا بد أن يطرح الإنسان فوارق الاختلاف جانباً وأن يجيب إلى ما يدعوه إليه الآخرون من الواقعية . إن أثمن الصداقات هي الصداقة غير المبتنية على المنافع الشخصية ، والتي تكون توأماً مع الإحساس بشعور الإخوة ، والتي تتمكن من أن ترضي الروح الإنسانية التي يعوزها المحبة والدفء . إن الذي يصور نفسه بصورة الصديق الوفي يجب أن لا تتزلزل أسس المحبة فيه في أي حال من الأحوال ، بل يزيل في الشدائد وآلام الحياة ما يخيم على قلب حبيبه من السحب السوداء ويروي في رياض قلبه فسيل الأمل والطمأنينة . ينبغي أن لا يطلب محبة الآخرين ولا أن يعيش في ظلّ عواطفهم إلاّ من يكون قلبه مليئاً من حبهم وودهم . يقول أحد العلماء « أن حياتنا كمنطقة جبلية كلما نادى فيها الإنسان سمع صدى صوته ، فالذي يكون قلبه مليئاً من حب الآخرين لا يرى منهم إلا المحبة والوفاء . إن حياتنا المادية مبنية على أسس التبادل ، ولا نريد أن نقول أن الحياة المعنوية أيضاً تبتني على نفس هذا الأساس ، ولكن كيف يجوز لك وأنت لا تفي للآخرين أن تنتظر منهم الوفاء لك ؟ وكيف تطلب منهم المحبة الدائمة وأنت لا تثبت على حبك لهم » .

إن معاشرة الآخرين لو كانت من دون مودة من الطرفين ولم يكن بينهما رابطة المحبة القلبية ، فإنها ستصبح لهم منبع المرارة والعذاب . إنّه إذا استولى كابوس الرياء على القلوب وعلى حياة الناس ، وإذا قام التملق من أجل المادة مقام الصداقة والصفاء ، وإذا ذبحت فراشة المودة الواقعيّة في خربة إجرام المجتمع ، حينئذ تضعف عواطف المواساة والتعايش ، ويسلب من ذلك المجتمع روح التعاون .

لا شك أنّكم قابلتم خلال معاشرتكم في المجتمع أشخاصاً لم تجدوا في أعماق قلوبهم أي محبّة أو عاطفة ، ولكنهم أخفوا وجوههم تحت ستار من مراءاة المحبّة ، وكثيراً ما تستطيعون أنتم أن تصلوا إلى صورهم الواقعيّة وما في عواطفهم من العيوب ، فيمزّق التفاتكم إليهم ما على وجوههم من البراقع .

إن أحد شروط السعادة ، وأن إحدى وسائل التربية الروحيّة هي الصداقة الواقعية مع الصلحاء من الناس ، فإن أفكار الفرد تتربّى في ظلّ معاشرتهم ، وتتصاعد روحه من بيئته العادية إلى معارج التقوى والفضيلة . ولذلك يجب على الإنسان أن يمعن النظر في اختيار الأصدقاء ، فإن من الخطأ أن يصادق الإنسان من لا يعتمد على طهارته ونزاهته ، إذ أن الإنسان خلق مكتسباً في أحواله الروحيّة ممن يعاشره في الحياة ، وهذا ما يخاف منه على صرح سعادة الإنسان أن يتصدّع ويهوي .

* * *

سوء الخلق ينفر عنك الناس :

إن من العيوب الخلقية والعادات غير المرضيّة ما يسبب تزلزل أسس المحبة ويجر إلى انقطاع حبل المودة بين الأوداء ، فإن ذا الخلق الخشن الذي لا يأتلف ولا يؤتلف يوجد بين نفسه والآخرين جداراً لا يتمكن معه أن يبصر أنوار الوداد . إن سوء الخلق يقلل من قيمة المرء ويحطم أسس سعادته وهنائه .

لا شكّ أن سيء الخلق ينفر منه كل أحد ، فإن الإنسان يتألم من معاشرة من لا يأنس به ولا يتناسب معه . وهذا ما يسلب صاحبه إمكانيات كثيرة كان ـ لولا سوء خلقه ـ يستطيع أن يستفيد منها في سبيل تقدمه في الحياة .

يجب على الانسان الذي يريد أن يتعاشر مع الآخرين أن يتعرف على أمور تشترط في فن المعاشرة ، يجب أن يتعلمها الإنسان مسبقاً ثم يعمل على طبقها في الحياة وينتهي طبقها عن أمور تباين السّنن الصحيحة في المجتمع ، وبدون ذلك لا يتحقق للفرد أن يعيش بين المجتمع ، ولا تتكامل الأخلاق العامة بينهم . إن حسن الخلق أول شروط السعادة بين الناس ، وأنه عامل في رفع مستوى شخصيّة الإنسان إلى أعلى ، وهو يتيح للإنسان أن يستفيد من جميع قواه ، وله التأثير التّام في إدارة حياة المجتمعات ، ولا تصل أيّة صفة أخرى من صفات الإنسان إلى ما عليه هذه الصفة من استجلاب عواطف الآخرين ، والتقليل من آلامهم في الحياة .

إن الذي يتمتع بهذه الروحيّة الإنسانيّة العالية لا يري الآخرين وجهاً عبوساً

يمكنهم أن يبلغوا إلى أغوار آلامه من ورائه ، بل أنه يسعى دائماً أن يخلق حوله هالة من النشاط والسرور ينسي الناس بما يخلق لهم من الطمأنينة آلامهم ، وهو يحفظ الطمأنينة في نفسه على رغم مشاكل الحياة فيصل بها إلى الفلاح والنجاح .

إن حسن الخلق أقوى عامل له الأثر القاطع في تأمين التوفيق للأفراد في الحياة ، فليس بحاجة أن نقول أن تقدم شركة تجارية ـ مثلاً ـ يرتبط بحسن أخلاق العاملين فيها بنسبة كبيرة .

إنّ مدير أيّة مؤسسة لو كان ذا أخلاق طيبة فهو بالإضافة إلى أنه يتمتع بقدر كاف من النشاط سوف يجذب إلى نفسه عدداً كبيراً من المراجعين .

يقول حافظ الشيرازي الشاعر الايراني الكبير ما معربه :

بحسن خلقك جادلهم فتصحبهم   فلا يصيد ذكيّ الطير إلّاه

إنّ حسن الخلق هو سر المحبوبية عند الناس ، فإنّ الناس لا يتحملون سوء خلق أحد مهما كانت منابعه وأسبابه ، إنك لو أمعنت النظر في سيرة من يعاشرك التفت إلى السبب الكامن في عدم نفوذ حبّ بعضهم إلى قلبك ، وامتلاك بعضهم الآخر لقلبك بأخلاقهم وصفاتهم .

يذكر أحد علماء الغرب تجربة شخصية في مورد حسن الخلق يقول « عزمت على تجربة أثر نشاطي وطلاقة وجهي على نفسي ـ وكنت منذ مدّة حزيناً كئيباً ـ فخرجت بهذا العزم من بيتي ، وقلت في نفسي لاحظت مراراً أن نشاط غيري وطلاقة وجوههم مما يمنحني قوة ونشاطاً ، فعلي أن أعلم هل أستطيع أنا أيضاً أن أؤثّر هكذا في الآخرين أم لا ؟ وكنت في أثناء الطريق أكرّر في نفسي عزمي على النشاط وطلاقة الوجه ، وكنت أحاول أن أقنع نفسي أنّي سعيد الحظ جداً ، وبتأثير من هذه الايحاءات النفسية أحسست راحة في بدني ، وكأني بنفسي أطير فرحاً وسروراً ، وأنظر إلى ما حولي مبتهجاً مبتسماً . ولكني كنت أرى حولي وجوهاً قد ارتسم عليها ملامح الأفكار الكئيبة ، فكان يتحرق قلبي حزناً عليهم ، وأتمنى لو كنت أستطيع أن أمنحهم شيئاً مما في قلبي من لمعات النور والضياء . دخلت إلى مكتب عملي فسلمت على المحاسب

بكل نشاط ، وحيث لم أكن قبل هذا اليوم بذلك النشاط فلم أكن في سائر الأيام أسلم عليه هذا السلام حتى ولو كنت أنقذ به حياتي ، ولم يتمالك المحاسب إلاّ أن أبدى لي حرارة وعاطفة شديدة ، أحسست من خلال ذلك أن نشاطي قد سرى إليه . وكان رئيس تلك الشركة التجارية التي كنت أعمل فيها من أولئك الذين يلتزمون أعمالهم بحيث لا يرفعون طرفهم إلى من حولهم ، وكانت له أخلاق خشنة ، فأنّبني ذلك اليوم في شأن عملي تأنيباً شديداً لو كان ذلك في غير ذلك اليوم لم أكن أتحمله ، إذ كنت رهيف الحسّ شديد الإحساس ، ولكن حيث كنت عزمت ذلك اليوم على أن لا أتأثّر من أيّة حادثة أجبته جواباً بسط من على محياه من التجاعيد ما كان قد قطب به في وجهي ، وكانت هذه القضيّة ثانية الحوادث لي في ذلك اليوم . وإلى المساء من ذلك اليوم حاولت أن أحتفظ بنشاطي لنفسي ولمن حولي من زملائي في العمل . وبنفس هذه الطرّيقة توفقت أن أجرّب هذه العملية في العائلة التي كنت أقيم بينها ، فكان أثر تجاربي أنّ بدى على من لم أكن أشاهد فيه من قبل سوى الفتور والإهمال علائم العواطف والتلاحم . وعلى أثر تجاربي المتعددة اكتشفت أنّي أستطيع أن أكوّن بهذه الطريقة نشاطاً لنفسي وأوحي لمن حولي بذلك أيضاً .

وأنتم أيضاً لو عاشرتم الناس بهذا التفكير رأيتم وجوهاً من الإبتهاج والفرح تنفتح أمامكم كما تنفتح براعم الزهور في فصل الربيع ، ولكسبتم لأنفسكم أصدقاء عديدين ، ولساد السلام والوئام على أرواحكم دائماً » .

ليس هناك من ينكر تأثير هذه الصفة حتى في إخضاع قلوب الأعداء « إنّ من البيان لسحراً » يؤثّر في الآخرين ، وإنّ للأدب والإحترام في الكلام دوراً مهماً في إخضاع الخصم لما يرام .

يقول أحد الكتاب الغربيين « أنّ جميع الأبواب مفتّحة على الوجه الطلق ذي الخلق الحسن ، بينما يضطر ذوو الأخلاق السيّئة أن يضغطوا على الأبواب المغلقة لفتحها كالصعاليك أنّ أحسن الأمور ما تم بالأدب والظرافة وحسن الخلق » . وأضيف أقول : إن حسن الخلق إنّما يوجب السعادة ويبلغ بصاحبه إلى الكمال حينما يكون من صميم القلب بعيداً عن كلّ ما يتعلق به من الرياء والتظاهر ، أعني أن ينبع الإحساس بالمحبة من أعماق الروح ، فإنّه ما لم يصبح

الأدب وحسن الخلق من الملكات الباطنة الطاهرة لا يمكن أن يكون له قدر أو اعتبار ، فإنّ حسن الظاهر فحسب ليس دليلاً على المزايا الباطنية وطهارة السيرة لأحد ، فإنّه من الممكن أن تكون الأخلاق الظاهرة مع كل ما فيها من الجمال نابعة من قلب متقلب في الضلال ملوّثاً ، فما أكثر الشياطين في ملابس الملائكة ، الذين يخفون وجوههم الرهيبة الهائلة تحت ستار جميل .

***

رسول الإسلام قدوة وأسوة :

كلنا يعلم بأنّه كان من أكبر عوامل تقدّم الإسلام « حسن أخلاق » الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وكما أنّ الله تعالى ينسب توسع الإسلام إلى الأخلاق الحسنة للرسول فيقول : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾[1] .

كان رسول الله يفتح صدره الرحب على كافة الناس ، وكانت تتجلى في سيمائه الملائكي الجميل محبّة عميقة للبشرية لا يمكن أن توصف ، فكان يعمّ المسلمين على السوية باللطف والعناية « وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقسم لحظاته بين أصحابه ينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية »[2]

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يذم سوء الخلق فيقول : « سوء الخلق شؤم وشراركم أسوأكم خلقاً »[3] .

ويقول في مقام آخر : « يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر »[4] .

وكان خادمه أنس بن مالك يتذكر أخلاقه العظيمة دائماً ويقول :

« خدمت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عشر سنين ، فما قال لي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .
(٢) روضة الكافي: ص ٢٦٨ .
(٣) نهج الفصاحة: ص ٣٧١ .
(٤) وسائل الشيعة: ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

أف ، ولا لم صنعت ؟ ولا إلا صنعت »(٥) .

إنّ حسن الخلق والنشاط من أسباب طول العمر للإنسان ، فقد قال الإمام الصادق بهذا الصدد « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان ، في الأعمار »(٦) .

ويقول الدكتور ساندرسن : « إن النشاط أحد العوامل المهمة في معالجة الأمراض والوقاية منها ، إن أكثر الأدوية والعقاقير تولد مع الصحة المصطنعة والسريعة الزوال : ردّ فعل مضاعف ، بينما يوجد النشاط تأثيراً دائماً في جميع أعضاء البدن فالنشاط في العينين ينورهما ، والنشاط في القامة يحكمها ويقوّمها ، والنشاط في الكلام يصفي الصوت ، وأخيراً فالنشاط يحرّك جميع القوى في الفرد ، فالدورة الدموية لذوي النشاط والأخلاق الحسنة أسرع والتنفس فيهم أحسن ، والصحة فيهم أعمق وأعرق ، والمرض عنهم أبعد »(٧) .

وفي كلام الإمام الصادق (عليه السلام) نقطة جميلة ، إنه عليه السلام قرن الإحسان بحسن الخلق وعدهما من الأمور التي تزيد في العمر ، وذلك لأنّ المحسن يحسّ في نفسه بنوع من المسرة والنشاط من إحسانه ، فيكون للإحسان مثل ما لحسن الخلق من الآثار والنتائج الصحيّة .

وقد عدّ الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الصفة الحميدة من أسباب السعادة إذ قال : « من سعادة الرجل حسن الخلق »(٨) .

ويقول صموئيل اسمايلز : « هناك مثل مشهور يقول : إنّ الخلق الحسن واعتدال المزاج لهما الأثر في تقدّم الإنسان وسعادته كما تؤثر فيهما القوى والاستعدادات الذاتية الفطريّة . وحقيقة الأمر أن سعادة الأفراد ترتبط إلى حدّ كبير بحسن أخلاقهم ومحبّتهم »(٩) .

---

(٥) فضائل الخمسة : ج ١ ، ص ١١٩ .
(٦) وسائل الشيعة : ج ٢ ، ص ٢٢١ .
(٧) عن الفارسية : پيروزي فكر .
(٨) مستدرك الوسائل : ج ٢ ، ص ٨٣ .
(٩) عن الترجمة الفارسية : أخلاق .

إنّ حسن الخلق يوجب توسعة في المعيشة وزيادة في الرزق والإلفة ، قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : « حسن الأخلاق يدر الأرزاق ويؤنس الرفاق »[10] .

كتب أسوت ماردن في كتابه (تهذيب النفس) يقول :

أعرف مديراً لأحد المطاعم أصبح ثرياً وحصل على صيت طيّب بسبب سيرته الأخلاقيّة الحسنة في محله ، حتى أنّي علمت أنّ المسافرين والسياح يطوون طريقاً طويلاً حتى يصلوا إلى مطعمه ، حيث أنهم يجدون في محله كأنهم يعيشون في بيئتهم ومحيطهم الخاص . فحينما يصل الزبائن إلى محله يستقبلون بفرح وسرور لا يرونه في سائر المطاعم ، بل لا يرون هنا ما كانوا يجدونه في سائر المطاعم من التكلف المتعب البارد . فالعمال في هذا المطعم يحاولون مهما أمكن أن يرتبطوا مع الزبائن بروابط المودّة والصداقة لا كرابطة المشتري والعامل ، فكانوا يبتسمون في وجوههم ، ويهتمون بأشغالهم اهتماماً ناشئاً من المحبة للزبائن والعلاقة بهم ، ويوجدون في كل واحد منهم إحساساً يربطهم بالمطعم برباط من العلاقة الودية لا تكون هذه العلاقة تجذبهم مرّة أخرى إلى هذا المطعم فحسب ، بل تجعلهم لا يبخلون أن يدعو إخوانهم أيضاً ، وواضح ما لهذه السيرة من الآثار في جذب عدد جديد من الزبائن « ثمّ يضيف » لم يكن للآداب في أي دور من الزمن ما لها من الأثر العظيم هذا اليوم ، فقد أصبحت الأخلاق الحسنة والجاذبية والسعي في رفاهيّة الآخرين اليوم رأسمال لكل من يحب السعادة والموفقيّة في حياته لنفسه »[11] .

وكذلك عدّ الإمام الصادق (عليه السلام) طلاقة الوجه علامة على عقل الإنسان إذ قال : « أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً »[12] .

ويقول (صموئيل اسمايلز) : « الذي يرينا التاريخ هو أنّ كبار النوابغ كانوا رجالاً مستبشرين مسرورين ، فهم قد أدركوا المفهوم الحقيقي للحياة ،

(١٠) غرر الحكم : ص ٢٧٩

(١١) عن الترجمة الفارسية : خويشتن سازي .

(١٢) وسائل الشيعة : ج ٢ ، ص ٢٢١ .

وحاولوا أن يجسدوا عقولهم في أجسامهم ، فحينما يطالع الإنسان آثارهم يرى فيها صحة عقولهم وسلامة أنفسهم في نشاطهم وشوقهم واضحة جلية . إن الأرواح السامية والعقول الحاكمة لها من بشاشة الوجه وطلاقة المحيا علامة عليها ، فأخلاقهم نموذج لمن تأثّر بهم فتأسى بسيرتهم واستضاء بنور نشاطهم وسرورهم الطبيعي »[١٣] .

ولقد قال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله ، وحسن الخلق »[١٤] .

فينبغي لمن كان العقل قائده ويريد أن يعيش شريفاً أن يحصل على هذا الرأسمال المعنوي الثمين . ولأجل القضاء على صفة ذميمة يحتاج الانسان إلى إرادة كبيرة يركزها على الهدف المقصود ، أن الإلتفات إلى الأضرار التي تعلق بالإنسان من سوء خلقه يكفي لأن يحمل عقله على الكفاح ضدها .

---

(١٣) عن الترجمة الفارسية : أخلاق.

(١٤) الوسائل : ج ٢ ، ص ٢٢١ .

النظرة المتفائلة وحسن الظنّ

★ الطمأنينة واستقرار الخاطر .
★ آثار النظرة المتفائلة .
★ الإسلام يوصي بالتفاؤل .

إنّ الإنسـان يحتاج في صعيد الحياة المليء بـالضـوضـاء إلى اطمئنـان الخاطر أكثر من أيّ شيء آخر ، فمن يشتغل على صعيد الحيـاة بالكفـاح فيها بدون هذا السلاح فسوف ينتهي كفاحه لا محالة إلى انهزام ، وكلّ ما كان ثقل الحياة أثقل كانت هذه الحاجة أشد وأكثر وأوغل . فعلينا أن نعـرف الآن كيف نستطيع أن ننجو من أسر الإضطرابات الشعواء ، وأن نأوي إلى جناح الطمأنينة والاستقرار .

إنّ السعي وراء الثـروة ، والقـدرة ، والشهـرة ، والمـادة ، لتحصيـل الطمأنينة سعي باطل ، وسوف تذهب جميع المساعي الشخصيّة في هذه الطرق سدى ، إذ أنّ منبع السعـادة ليس إلاّ في نفس الإنسان ، كمـا أنّ منبع الشقـاء أيضـاً في نفس هـذا العـالم البـاطني ، كمـا ينسب إلى أميـر المؤمـنيـن (عليه السلام) قوله :

« أتـزعم أنـك جـرم صغيـر وفيـك انطوى العـالم الأكبر »
« دواؤك فيـك ومـا تشعـر وداؤك منـك ومـا تبصـر »[1]

(١) الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)، حرف الراء.

فالدواء ـ كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ في نفس الإنسان فلا يمكن أن نجد في المقتضيات الخارجية لهذا الهدف مثل ما نجده في الذخائر الثمينة من القوى الباطنية للإنسان ، فإن جميع منابع الرفاهية الخارجية وجميع الوسائل والمتشبثات التي تتخذ في هذا السبيل مؤقتة زائلة ، فمحال أن تبلغ بالإنسان إلى الطمأنينة الكاملة ، إنما الفكر والخصائص الأخلاقية هي التي لا تزول ، فهي التي تغني الإنسان عن الإلتماس والتوسل بالأمور الزائلة .

يقول « ابيكتتوس الفيلسوف اليوناني الشهير » : يجب أن نعلم الناس أنهم لا يستطيعون أن يجدوا السعادة وحسن الحظّ حيثما يفتشون فيه عنهما ويخبطون سعياً وراءهما خبط عشواء ، إنّ السعادة الحقيقية ليست في القوة والقدرة ، فإن « ميرد » و « اقليوس » لم يكونا من السعداء ، مع ما كان لهما من القدرة الفائقة . إن السعادة ليست في الثروة والأموال الطائلة ، فإنّ « كروسوس » لم يكن سعيداً مع جميع ما كان له من الكنوز والخزائن العديدة . إنّ السعادة ليست في القدرة الحكومية والإختيارات السياسية ، فإن قياصرة الروم البيزنطية لم يكونوا سعداء مع ما كان لهم من القدرات الوسيعة .

وليست السعادة في مجموع هذه العطايا والمزايا أيضاً ، فإنّ « نرو » و « ساردناپال » و «آگامنن » كانوا يبكون دائماً ويئنّون ، إذ أنهم كانوا ألعوبة بيد الحوادث والمصادفات ، مع أنهم كانوا يمتلكون جميع تلك العطايا في حيازتهم . إنّه يجب أن يفتش كلّ إنسان عن سعادته الحقيقية في نفسه وضميره » .

يجب أن نعترف أنّ حلّ الكثير من الألغاز المدهشة في الطبيعة ، وأنّ تكثير وسائل الحياة في العصر الحاضر ، لم يكف لإيجاد حياة لا قلق فيها ولا اضطراب ، وليس أنها لم تستطع أن تقلل من آلام الحياة فحسب ، بل أتحفت البشرية تشويشاً وقلقاً واضطراباً جديداً ، وعلى هذا ، فمن أجل الابتعاد عن الآلام المستمرة في الحياة ، ولأجل الارتفاع عن سطح السحب السوداء التي سترت أرواحنا ، نحتاج إلى الأفكار النيّرة حاجة ماسّة ، إنّ الفكر الذي يعدّ بحق أكبر القوى الفعّالة في حياتنا كما استطاع أن يسلّط البشر على الحياة المادية ، وأن يوجد تغييراً مذهلاً في جميع شؤون الحياة ، يستطيع أن يؤمّن

الروعة فيها أيضاً ومن هنا يتجلى الدّور الأساسي للفكر وأثره المدهش في حياة البشر .

إن الفكر النيّر منبع فيّاض ، يقدّم الإنسان إلى أعلى من حاجاته الماديّة ويعرّفه على عالم آخر ، إنّ الأفكار العالية تمنع الإنسان الواعي من أن يصبح ألعوبة بيد القلق ، إنّ الذي ربيت قواه الفكريّة نافذة قويّة حتى أصبحت مركز الثقل في وجوده ، يتمكن حين الوقوف على أعتاب الحوادث المرّة أن يتخذ حالة فكريّة إيجابية بنّاءة ، ويكون « كالجبل الراسخ ، لا تحرّكه العواصف ، ولا تزيله القواصف » .

ولأجل النجاة من سيطرة الحوادث ، ومن أجل أن لا تقع سفينتنا في الحياة في خضم أمواج الإفراط أو التفريط ، يجب علينا أن نوجد في أفكارنا ميزاناً نقيم به أنفسنا في تصرّفاتها فتقودنا الأفكار الصحيحة ، للتي هي أقوم وتتجهز جميع قوانا الروحيّة ضدّ العوامل التي تولد القلق فينا .

يقول أحد علماء الغرب : « لعلنا لا نستطيع أن ننتخب أولئك الأفراد القلائل الذين يشبهوننا من حيث الأخلاق أو النواحي الأخرى ، ولكننا أحرار في اختيار أفكارنا ، فإننا في عقولنا حكماء بما نشاء ، وليست هذه المقتضيات والظروف والمؤثرات أو الأشياء الأخرى التي نشاهدها في خارج عقولنا داخلة في عقولنا حتى تؤثر فيها أو تتحكم وتضطرنا إلى أن نختار ما لا نريده من الأفكار ، إذن فيجب علينا أن نتعرّض للأفكار الصحيحة ، وأن نطرد عن عقولنا الأفكار القاصرة ، فإننا نتوجّه دائماً إلى حيث تتوجه إليه أفكارنا ، وبعبارة أخرى أنّ أفكارنا هي التي توجّهنا أيّ جهة شاءت ، فيجب علينا أن لا نبيح لأنفسنا أن نفكّر تفكيراً شرّيراً ، ولا أن نشغل عقولنا بما نحن منه براء ، فإنّ هذه الأفكار هي التي تأسرنا فتسقطنا في أنواع البلاء . يجب علينا دائماً أن نكون في التفكير نحو التكامل لا الانتقاص ، يجب علينا أن نشغل أنفسنا بأحر الآمال وأسمى الأهداف ، فإن سرّ الموفقية والسعادة إنما هو في التفكير السليم فحسب » .

***

آثار النظرة المتفائلة :

كما يختلّ النظام الجسماني بأنواع الأسقام ، كذلك تختل الطمأنينة الفكريّة بعوامل مختلفة من العادات والصفات الذميمة ، فإنّ الفكر مع ما له من قوة لا يستغني عن السلوك الأخلاقي ، وإنما يجد الإنسان لذّة السعادة حينما يتحلى بالأخلاق وتنسجم نشاطاته الفكرية والأخلاقية بعضها مع بعض ، فيجب على الإنسان إذن أن يقلع بقوة الإرادة جذور تلك الصفات التي تخيّم على حياته كالسحب القاتمة السوداء ، وأن يزرع مكانها عوامل الطمأنينة والاستقرار .

إنّ أحد العوامل التي تساعد على الإستقرار الفكري هي « النظرة المتفائلة » إلى الحياة ، والثقة بالآخرين ، إنّ النظرة المتفائلة وحسن الظن بالناس يعدّ ضماناً للطمأنينة لمن يعيش في ساحة الحياة الإنسانية ، على العكس من النظرة المتشائمة وسوء الظن بالآخرين فإنها توقف النشاط الفكري وتقلل من قوّة التكامل فيه . إنّ النظرة المتفائلة في الحياة كالنور في الظلمات ، تتسع في ظلالها آفاق التفكير ، وينمو في الإنسان حب الإحسان وبهذا يحصل للإنسان تطوّر في نظرته إلى الحياة ورؤيته لها ، فيكون للحياة في نظر هذا الإنسان لون أجمل وأحلى ، فيرى جميع الناس في الضياء ويحكم عليهم أو لهم حكماً جليّاً واضحاً ، وتقلّ ألوان آلامه وتتقد آماله ، ويحفظ علاقاته الظاهريّة والمعنوية والعاطفية مع أفراد المجتمع على أحسن الوجوه .

لا شيء في الحياة يقلل من خضم مشاكل الحياة كما تقللها النظرة المتفائلة ، فإن الذي يتمتع بهذه الفضيلة الأخلاقية لا ترتسم أنوار المسرّة على محياه في حال الرضا فقط ، بل يلائم نفسه مع المشاكل والأمور السلبيّة في الحياة فيحلها برأيه الصائب وقوّة الأمل بكل بساطة ، وتراه تشع من روحه دائماً أنوار الطمأنينة والاستقرار .

إنّ الحاجة إلى اكتساب ثقة الآخرين بالشخص حاجة ضرورية ، ولأجل الحصول على الثقة بين الأفراد يجب أن يدخل أصل حسن التفاؤل في برامج المعاشرات في هذه الحياة ، وهذه حقيقة لها الأثر المباشر في سعادة الفرد والمجتمع . إن وجود الثقة بين الأفراد من عوامل اطّراد ازدهار المجتمع وتقدّمه ، والعكس صحيح أيضاً ، فإنّ فقدان الثقة بين الأفراد من عوامل

الانهزام والإنحطاط في المجتمع . كلما كانت المواصلات بين الأفراد أعمق وأكثر كان تقدم المجتمع واطّراده أكثر وأسرع . وإنّ من أولى الثمار الإجتماعية للنظرة المتفائلة هو الإئتلاف والتعاون والثقة فيما بينهم ، وإنما يمكن التمتع بحياة من نوع التعايش السلمي فيما لو كان التعايش بين الأفراد مبنياً على أسس العلاقات القلبية توأماً مع الثقة بالآخرين وحسن الظن بهم ، أما مع فقدان حسن الظن بين الأفراد وانتشار روح التردد والتشكيك فلا يتحقّق التعاون بينهم ، بل يزاحم بعضهم بعضاً وينتقد بعضهم الآخر بلا مبرّر . ومن المقطوع به أن مثل هذا المجتمع سوف لا يكون إلا مجتمعاً صوريّاً ظاهرياً ، فاقداً لما يمكن أن يكون للمجتمع من آثار ونتائج نافعة . يقول أحد العلماء : « أنّ حسن الظنّ من مظاهر الإيمان ، ولا يمكن أن يتحقّق أيّ عمل بدون إيمان وأمل » .

وكلمّا قويت ثقة الشخص بالآخرين قويت ثقة الآخرين به أيضاً ، وهذا من أنواع ردود الفعل التي تظهر في المجتمع مهما كان . ولكن لا ينبغي أن ننسى أنّ بين النظرة المتفائلة وحسن الظن بالآخرين وبين سرعة الإيمان بالآخرين تفاوتاً بعيداً ، فإنّه ليس حسن الظن أن يستسلم المسلم لمن لا يعرفه استسلاماً مطلقاً ، فيصغي إلى ما يقوله من دون أن يتصدّى لاستطلاع أوضاعه وبدون أن يختبره . وأيضاً لا ينبغي أن نعمّ بهذه النظرة من كان متجاهراً بالجرائم غير متورع من الأرجاس . وبكلمة نقول ليست هذه النظرة أصلاً عامّاً غير قابل للتخصيص في موارد معيّنة ، وهي ليست قابلة للتطبيق على جميع الأفراد في جميع الحالات . بل أن صاحب هذه النظرة مع ما له من حسن الظن بالناس وحمل فعل الناس على الصحة لا يترك الحزم والنظر في عواقب الأمور ، فسلوكه مبنيّ على الاحتياط والحذر ، وعمله مبنيّ على دقّة النظر وعمق الفكر .

* * *

الإسلام يوصي بالتفاؤل وحسن النظر :

إنّ الإسلام بملئه لقلب المؤمن بالإيمان قد غرس في قلبه أصل التفاؤل وحسن النظر ، وهكذا قاد المؤمنين إلى حيث الطمأنينة والاستقرار . وكان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) متّصفاً بهذه الصفة إلى حيث اتهمه المنافقون بما حكاه عنهم القرآن الكريم فقال : ﴿ **ويقولون هو أذن قل أذن خير**

لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ وأرادوا بقولهم هو أذن أن يصوّروا هذه الصفة الممتازة فيه بصورة كريهة غير مرغوب فيها .

إن الإسلام قد أمر المسلمين أن يحسن الظن بعضهم ببعض ، وأن يفسّروا عمل المؤمن بالوجه الصحيح المشروع أو أن يحملوه على ذلك ، فلا يجوز لأحد أن يحمل عمل أيّ مسلم على الفساد من دون أن يكون له شاهد قاطع على ذلك .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « ضع أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك ، ما يقلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً »(٢) .

إنّ من ثمرات حسن الظن بالآخرين هو كسب محبتهم والتآلف معهم وكان أئمة الإسلام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (عليه السلام) يبين بمختلف العبارات ثمرات هذه النظرة فيقول مثلاً : « من حسن ظنّه بالناس حاز منهم المحبة »(٣) .

ويقول الدكتور ماردن : « حينما تصادقون أحداً حاولوا أن لا تنظروا منه إلاّ إلى خصائصه الحسنة وخصائله الأخلاقية والرّوحيّة الجيّدة ، ثمّ حاولوا أن تكبّروا في أنفسكم ما تجدونه منه من هذه الخصائل الجميلة . فإذا استطعتم أن تركّزوا وصيتي هذه في أفكاركم فستعيشون عيشة راضية مرضيّة ، وستجدون كل أحد يحاول أن يريكم وجهه الوادع الصافي ، وكلّ يحاول أن يكسب صداقتكم لنفسه »(٤) .

إن من الممكن أن تؤثر النظرة المتفائلة والثقة بالآخرين أثرها المطلوب حتّى في أفكار وأعمال أولئك الذين قد تلوّثوا بالآثام ، فإنها ـ بخلاصة القول ـ تستطيع أن تهيّء أرضية الإصلاح لهكذا أناس . فقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) :

---

(٢) جامع السعادات : ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٣) غرر الحكم : ص ٦٨٧ .

(٤) عن الفارسية : پيروزي فكر.

« حسن الظنّ ينجي من تقلد الإثم »[٥] .

ويقول الدكتور دايل كارنيجي : « التقيت أخيراً بأحد مديري (جمعية المطاعم) وكانت هذه الجمعية قد تشكلت من مجموع ست وعشرين مطعماً تدار بكيفية خاصة سمّوها (معاملة الشرف) ففي هذه المطاعم التي تأسست جمعيتها من عام ١٨٨٥ م لا يضعون أمام الزبون قائمة المصروفات ، بل تدخل أنت فتوصي بما أحببت ، ثمّ أنّك تحاسب نفسك بنفسك ، وحينما تريد الخروج من المطعم تعطي المبلغ إلى أمين الصندوق وتخرج ، من دون أن يكون هناك مفتّش ولا محاسب .

فقلت أنا لهذا المدير : طبعاً لكم مفتش سرّي ؟ إذ لا يمكنكم أن تطمئنّوا إلى جميع الزبائن في هذه المطاعم قال المدير : « كلاّ ، ليست لنا أيّة مراقبة على الزبائن ، ولكنا ندري أن عملنا هذا صحيح بصورة عامّة ، وإلاّ لم نكن نتمكن من أن نتقدّم بعملنا هذا نصف قرن من الزمان . إن الزبائن في هذه المطاعم يحسّون بأنهم يحاسبون فيها محاسبة الأشراف ذوي الحسابات المنتظمة ، ومن هنا يحاول كلّ منهم من الفقير والغنيّ والسارق والسائل أن يكون على مستوى حسن الظن به هنا » وكان المستر (لاويس) الخبير المجرّب في هذه الأمور يقول : « إذا عاشرتم رجلاً متقلّباً سيّء السلوك وحاولتم أن تدعوه إلى الخير والصلاح ، فحاولوا أن تشعروه بأنّكم تطمئنون إليه ، وأن تتعاملوا معه معاملة الرجال الأشراف المحترمين ، فسوف تجدونه يحاول أن يطمئن إليّ اطمئنانكم إليه ، ولأجل أن يريكم نفسه أهلاً لما أحسنتم من ظنّكم به يحاول السعي والعمل في سبيل الوصول والحصول على ما ظننتم به من الخير والصلاح »[٦] .

ويقول الدكتور ژيلبرت روبن : « ثقوا بالأطفال ، أعني تعاملوا معهم معاملة من لم يرتكب أي ذنب قطّ ، أي اشطبوا على ماضي الأطفال وتناسوا ما مضى منهم من العمل السيّء . بل حاولوا أن تجعلوا بعض الوظائف المهمّة غير المتناسبة على عهدة من لا يراعي الانضباط الخلقي أو وظائف الصحة العامّة أو

(٥) غرر الحكم : ص ٣٧٨ .
(٦) عن كتابه : كيف تكسب الأصدقاء .

الذين يفرون دائماً من بيوتهم أو وظائفهم ، وفوق هذا حاولوا أن تكون الأعمال في هذه الوظيفة الجديدة الملقاة على عاتقه تشعره أنّه قد تحسّن في سلوكه وأنّه أصبح أهلاً لما توقعتموه منه من عمل وتكليف . إن من الممكن أن تزاح موانع الإصلاح بالسلوك الجميل ومنح الثقة لمن يراد إصلاحهم . ومن هنا نستطيع أن نقول أن أكثر الأفعال غير المرضيّة هي ردود فعل وجدت لتسد فراغاً يحسّه صاحبها . إن (السير يل برت) كان يقترح لمكافحة الغرائز الشريرة طرقاً جيّدة ، أنّه كان يقول : « ينبغي أن يودع عند من اعتاد على السرقة من الأطفال نقود بصورة الأمانة ، وأن يعهد إلى من اعتاد منهم التحلل والبطالة عمل جسماني يطابق ذوقه »[٧] .

إن حسن الظن يضمن لصاحبه طمأنينة الخاطر ، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« حسن الظن راحة القلب ، وسلامة الدين »[٨] وأنّه يهون على الإنسان الآلام والحوادث المرّة في الحياة ، فإنّه قال (عليه السلام) أيضاً : « حسن الظن يخفف الهم »[٩] .

ويقول الدكتور ماردن : « لا شيء يجمّل لنا الحياة في أعيننا ، ويقلّل من آلامها ، ويعبّد لنا طريق الموفقية فيها ، كالنظرة المتفائلة وحسن الظنّ بالآخرين ، فاحذروا من الأفكار المؤلمة كما تحذرون من الأمراض وأعراضها الخطيرة ، وافتحوا أفكاركم على الفكرة المتفائلة ، وانظروا كيف تستطيعون أن تنجوا من الأفكار القاتمة بكل سهولة ويسر »[١٠] .

ويجب أن يكون سلوك المسلمين بعضهم مع بعض بما لا يدع سوء الظن أن يتغلغل في أوساط مجتمعهم ، ولهذا كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يوصي أن يكون المسلم عند حسن ظن أخيه المسلم به ، وأن لا يحطّم حسن

---

(٧) عن الفارسية : مجموعة چد ميدأنم .
(٨) غرر الحكم : ص ٣٧٦ .
(٩) نفس المصدر : ص ٣٧٧ .
(١٠) عن الفارسية : پيروزي فكر .

ظنّ إخوانه به بعمله السيّء ، وأن يتقي موارد التهمة في أنظارهم ، فكان (عليه السلام) يقول : « من انتجعك مؤملاً فقد أسلفك حسن الظن بك ، فلا تخيب ظنّه »(١١) ، ثم جعل ظن الإنسان ميزاناً لعقله فقال : « ظن الإنسان ميزان عقله ، وفعله أصدق شاهد على أصله »(١٢) ، فمن كان ظنّه سيّئاً بالناس كان عقله كذلك ولذلك فقد جعل (عليه السلام) تكذيب الظنّ السيء بالمسلم علامة على مدى قدرة الشخص الروحية فقال (عليه السلام) : « من كذب سوء الظنّ بأخيه كان ذا عقل صحيح ، وقلب مستريح »(١٣) .

ويقول صموئيل اسمايلز : « ثبت أن من كان ذا طبيعة قويّة وروح كبيرة كان بطبعه مسروراً مؤملاً في الحياة للخيرات ، وكان ينظر إلى كل أحد وكّل شيء بنظرة الثقة والطمأنينة . إن العقلاء يرون وراء كل سحاب مظلم قاتم شمساً مضيئة نيّرة ويشاهدون خلف كل شقاء ومحنة سعادة يسعون وراءها ، فيجدون من كل ألم ومصيبة قوّة جديدة ، ويستوهبون من كلّ حزن وغم جرأة ومعرفة وثقافة جديدة . إن طبيعة كهذه لسعيدة حقاً ، وينبغي أن يغبط أصحابها عليها . فإن نور المسرّة تتّقد في أطراف عيونهم ، ولا يرون إلّا مبتسمين . قلوبهم تلمع ضياء كالشموس ، ولا ينظرون إلى شيء إلّا وأبصروه واضحاً جلياً مشرقاً وضّاء ، ملوّناً بما يشاؤون من ألوان بديعة »(١٤) .

ويعد الإمام الصادق (عليه السلام) حسن الظن من حقوق المسلم على المسلم :

« من حق المؤمن على المؤمن . . . وأن لا يكذبه »(١٥) .

حقّاً إن أقوى ما ولد عند الإنسان حسن الظن والتفاؤل بالخير هو الإيمان ، فلو كان الناس أمّة واحدة في الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر لكان

---

(١١) غرر الحكم : ص ٦٨٠ .
(١٢) نفس المصدر : ص ٤٧٤ .
(١٣) من الترجمة الفارسية : أخلاق .
(١٤) غرر الحكم : ص ٦٧٦ .
(١٥) الأصول من الكافي : ج ١ ، ص ٣٩٤ .

من الطبيعي أن يثق بعضهم ببعض حقاً ، إن فقـدان الإيمان هـو الدّاء الـوبيل العضال الذي يسلب الإنسان حسن ظنّه بالآخرين ويستبدل به سوء الظن بهم ، إن المؤمن الذي يطمئن قلبه بالإيمان والثقة بالله ، حينما يحس بضعفه وعجزه يتوكل على تلك القـدرة المطلقـة ، ويستعين في الشدائـد بالله الـذي منه كـل قدرة ، وهذا مما يؤثّر في تهذيب روحه وأخلاقه أثراً عميقاً .

النظرة المتشائمة وسوء الظن

★ مواضع النور والظلام في الحياة .
★ أضرار النظرة المتشائمة .
★ مكافحة الإسلام لها .

إنّ حياة الإنسان خليط من الراحة والألم ، فكل منهما يستوعب ناحية من العمر المحدود للبشر في هذه الحياة . وكل إنسان يواجه قسماً منهما على حدّ ما له من نصيب ، ويقع فريسة بينهما لمشاكل الحياة ومصائبها ، وطبقاً لهذه الحقيقة المرّة تتأرجح حياة الإنسان بين الألم والراحة .

ولا نستطيع نحن أن نغيّر من هذا الناموس الأبدي في هذه الحياة الدّنيا حتى نخضعها لما تشاؤه أهواؤنا ، ولكنا بعد أن تعرفنا على حقيقة هذه الحياة نستطيع أن نعطف أنظارنا على الجانب الجميل من موجودات هذه الحياة ، وأن نزحزح عن أبصارنا تلك الأشكال الكريهة من صور الحياة ، في هذا الفضاء الرحيب الذي يزخر ببدائع الصنع ولطائف الحكمة ، والذي يشتمل كل شيء فيها على معنى من اللطف خاص به مخلوق من أجله ، أو إن نعكس ، فننسى ونتناسى تلك النقاط النيّرة والمشعّة من الوجود ، وأن نوجّه دائماً إلى المواضع المظلمة والجوانب القاتمة السوداء منها . وبكلمة لكل أحد أن يوجّه فكرته إلى أيّ جهة شاء وأراد ، وأن يصوّر الحياة بأيّ لون أحب .

يجب علينا أن نهيّىء أنفسنا لمواجهة ما لا يلائمنا مما يسدّ علينا طريق الحياة ، حتى لا نفقد عندها القدرة على ضبط أنفسنا ، وإلا فسنقابل بخسائر لا

تجبر ، بل ربما نسقط في خضمّ حوادث الحياة .

قد يتصور بعضنا أن لو كانت حوادث الحياة تجري على غير ما جرت عليه لكانوا سعداء ، بينما لا يرتبط شقاؤهم بحوادث الحياة ، بل بالكيفية التي يواجهون بها تلك الحوادث ، فإنّه من الممكن أن يغيّر الإنسان من تأثيرها على الروح بل يكسب المواقف الموفّقة من خلالها .

كتب أحد الكتّاب المعروفين يقول : « إنّ أفكارنا تدور دائماً مدار السخط والكراهية ، فعلى أيّ حال نحن شاكون باكون عاتبون ، وسبب هذه الشكاوى والبكاء منطو في ضمائرنا ، فإننا مخلوقون بكيفيّة يتعذب وجودنا ممّا لا يلائمه في الجسم أو الروح ، ترانا كل يوم نتمنى ونأمل شيئاً جديداً ، بل ربما لا نفهم ما نريد وما نتمنى ، ونظن أن السعادة قد حصل عليها الآخرون فنحسدهم أو نغبطهم ونتألم ، إنّنا نشبه الطفل غير المؤدّب ، الذي يخلق الحجج والمعاذير ، ويضجّ بالبكاء والنحيب ، وتتألم أرواحنا من ضجيج هذا الطفل وصراخه ، ولا نرتاح من صراخ هذا الطفل إلاّ إذا جعلناه يبصر الحقائق بعد أن لم يكن يبصر إلاّ الأهواء ، فنمنعه من مشتهياته الهوجاء ، إنّه على أثر أهوائه الكثيرة قد أصبح لا يرى إلاّ سوءاً فيجب علينا أن نفتح عينه على جوانب الخير في هذه الحياة ، يجب علينا أن نفهمه أنّه إنّما يحظى باقتطاف الأوراد والزهور من حديقة هذه الحياة من كان يفتح عينه عليها ويبصرها ، ومن كان أعمى فإنه سوف لا يحظى من الحديقة إلاّ بأشواكها . نحن لو تجاوزنا الضجر وسوء النظر ، ونظرنا بعين التحقيق ، لرأينا أنّه في كل عهد وحتّى في هذا العصر الذي قد وقع في هوّة سحيقة مهولة ، والذي تنقلب فيه حياتنا في كل ساعة رأساً على عقب ويختلط فيه السليم والسقيم والحابل والنابل ـ رأينا أن هناك في بستان هذه الحياة في كلّ مكان أوراداً ورياحين تدعو عيون الناظرين إلى نفسها في كل زمان » .

إنّ للإفكار أثراً عميقاً في سعادة الإنسان ، بل أن العامل الوحيد المؤثّر في سعادة الإنسان هو مدى عقله وفكره ، فالحادث غير العادي في نظر المتشائم يصبح كبيراً قاصماً للظهر لا يتحمّل ، أما المتفائل في الحياة الذي ينظر إليها بنظرة حسنة فهو يعتمد في هذه الآلام التي لا تجتنب إلى أصل (التسليم) ، فهو لا يفقد مقاومته حتى في أشد المصائب والهموم ، ولا يخرج عن حد

الاعتدال والتوازن والتماسك والصبر .

إنّ الذين اعتادوا أن يعتقدوا أنّ محور الشرّ يتركّز حولهم قاصداً إليهم ، سوف لا يعيشون إلاّ عيشة مؤلمة مظلمة قاتمة ومكفهرّة ، وسوف يفقدون على أثر حساسيتهم البالغة في الحوادث كثيراً من قواهم وطاقاتهم هباءً منشوراً ، وسوف يبقون في غفلة سادرة عمّا حولهم من مواهب هذا العالم وبركاته المحيطة بهم وهم لا يشعرون .

يقول أحد العلماء : « إنّ الدنيا تدين الإنسان كما يدينها وتعامله بالمثل تماماً ، فإن تضحك لها تضحك لك ، وإن تقطّب عليها تقطب عليك ، إن استعملت الفكر ألحقتك بالمفكرين ، وإن كنت رحيماً صدوقاً وجدت حولك أناساً يحبونك وقد فتحوا لك ما في قلوبهم من كنوز المحبّة والوداد » .

إن الآلام مهما كانت بظاهرها مرّة غير مستساغة ، لكنها تنتج للروح والفكر ثمارها الخاصة ، فإن الطاقات الروحية للإنسان تتجلّى في قتام الآلام أكثر فأكثر ، وأن العقل والروح الإنساني يتكاملان في طيّ هذه التضحيات المستمرة والسعي الدائم والأخذ والرد الممتد . . . إلى قمّة الكمالات الإنسانيّة الممكنة .

* * *

أضرار النظرة المتشائمة :

إن النظرة المتشائمة هي أحد الأمراض الروحيّة الخطيرة ، وهي منبع كثير من الخسران والضياع والشرود وخيبة الأمل ، وهي شقاء مؤلم معذّب للرّوح الإنسانية ، وإنّ آثارها السيّئة على الشخصيّة الإنسانية لا تمحى .

إنّ الآلام والمحن مواسم حسّاسة يمكن أن تنشأ عنها النظرة المتشائمة على أثر ثورة شديدة في العواطف والأحاسيس . إنّ النظرة المتشائمة التي تنبت في الفكر من هذا الطريق تؤثر أثرها المرّ غير المرضيّ في أفكار الإنسان .

إنّه لا يتجلّى جمال الخلقة في عين من تكدّرت مرآة روحه بقتام التشاؤم ، وليس هذا فحسب ، بل حتّى السعادة تظهر له وقد بدّلت صورتها إلى ملال ونكبة وأنّه بسوء ظنّه لا يستطيع أن يتصور عمل أي شخص بريئاً عن

الأغراض المريضة . إنّ هؤلاء الذين أصبحت أفكارهم سلبيّة سوف لا يبقى لديهم أيّة طاقة إيجابيّة ، فإنّهم بأوهامهم يخلقون لأنفسهم ما شاؤوا من المشاكل ، ويهدرون طاقاتهم بالتفكير حتى في الحوادث التي لم يصابوا بها بعد ولا يصابون .

وكما أنّ آثار النظرة المتفائلة والخلّاقة تسري إلى من حولها ، فتحيي فيهم عظيم روح الأمل ، كذلك النظرة المتشائمة تلقّن من حولها الألم والاضطراب ، وسوف تسلبهم مصباح الأمل الذي يضيء درب الحياة للسالكين .

وأن الآثار السيّئة للتشاؤم لا تقتصر على الروح فحسب ، بل تؤثر حتّى في الجسم أيضاً ، فتؤخّر شفاء الأمراض ، يقول أحد كبار الأطبّاء : « إنّ علاج من يسيء الظنّ بكل شيء وكل شخص ، أصعب بكثير من محاولة إنقاذ من يلقي نفسه في البحر مصمّماً على الانتحار إنّ إعطاء الدواء لمن يعيش في قلق واضطراب دائم في الحياة كمثل أن يريق أحدنا الماء في الزيت المغليّ على النار ، فإنه لا بد في تأثير أي دواء أن يكون المريض المعالج محتفظاً بروح الرضا والطمأنينة والاعتماد » .

إنّ من يصاب بسوء الظن يرى منه حالة الانزواء والحذر من معاشرة الآخرين بشكل واضح ، وأنّه على أثر هذه الحالة غير المرضيّة سوف يحطم ما في نفسه من استعداد للتقدّم والإطّراد ، وسوف تقدّر له عيشة غير مرضيّة . إنّ سوء الظن أحد عوامل الانتحار ، فإن العزم على الانتحار ينشأ غالباً من سوء الظن بالحياة .

ونحن إذا عطفنا النظر إلى حيث شئنا من المجتمع البشري شاهدنا أنّ أكثر أحاديث الناس بعضهم في بعض نابع من سوء الظن بدون أيّ مطالعة أو تأمّل ، فإنّهم مع ما هم عليه من ضعف في الموازنة والحكم يقطعون في أحكامهم على الآخرين قبل أن يطمئنّوا إلى علم بالموضوع ، فيصدّقون بلا تصور ، وقد يتعرّف الإنسان على أغراضهم الشخصيّة من خلال كلامهم . إن هذا العيب الكبير يسبب انقطاع أواصر الوحدة والإلفة القلبية . ويسلب من الناس حسن اعتماد بعضهم على بعض ، ويفسد أخلاقهم بل أرواحهم أيضاً .

إن كثيراً من موارد العداء والبغضاء والشحناء الذي يعود بالضرر على الفرد والمجتمع ، ينشأ من سوء الظن على خلاف الحقيقة والواقع ، فإن سوء الظن يسري في طبقات المجتمع حتى أنّه ليشغل أحياناً أفكار العلماء والفلاسفة ، فإننا نجد في مختلف أدوار تاريخ الأمم علماء أخطأوا ـ بتشاؤمهم ـ في كثير من أفكارهم أخطاء فاحشة ، فبدل أن يخدموا المجتمع البشري بعلومهم بنوا آراءهم علي أساس النقد والبحث عن العيوب في نظام العالم ، فسمّموا بفكرهم الضار ومنطقهم الخاطىء روح المجتمع ، وجعلوا مبادىء الأخلاق بل مباني العقائد مورداً للطعن والاستهزاء . وقد اشتدّ في بعضهم الخوف والقلق من الانفجار السكاني والفقر والفاقة حتى جوّز كل ما يوجب تحديد نسل الإنسان حتى الحروب وسفك الدماء فلو كان الناس يتبعون هذه الأفكار المسمومة لما وجد اليوم أيّ أثر من حضارة البشر .

إنّ أحد الفلاسفة المتشائمين هو (أبو العلاء المعري) الفيلسوف الشهير الذي كانت أفكاره تدور مدار التشاؤم ، حتى أنه كان يرى أن الحياة كلها ألم وعذاب وكان يحرّم على الإنسان النكاح والتوليد لينقرض نسل الإنسان فلا يعذب ، ولما حضرته الوفاة أوصى أن ينحتوا على صخرة قبره أبياتاً من شعره ، منها هذا البيت :

« هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد » !

***

مكافحة الإسلام للتشاؤم :

إنّ القرآن الكريم صرّح بعدّ التشاؤم وسوء الظن من الذنوب والمعاصي وحذّر المسلمين من سوء ظن بعضهم ببعض فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) .

إنّ الدين الإسلامي منع الناس من سوء الظن من دون برهان قاطع عليه .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « المسلم على المسلم

حرام دمه ، وماله ، وأن يسيء الظن به »[1] .

فكما يحرّم الحكم بنقل مال امرىء إلى آخر من دون دليل كاف كذلك لا يهوّن أن نسيء الظن بالناس فنتهمهم بالشر والسوء قبل ثبوت ذلك بدليل قاطع .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن »[2] .

ثمّ يبين أضرار سوء الظن ومفاسده بعبارة بديعة وبيان ساحر فيقول :

« إياك أن تسيء الظن ، فإن سوء الظن يفسد العبادة ، ويعظّم الوزر »[3] .

ثمّ يعدّ سوء الظن بالمحسنين من الظلم : « سوء الظن بالمحسن شر الإثم وأقبح الظلم »[4]

ويعدّ سوء الظن بالأحباء سبباً لقطع الأواصر وتوتر العلاقات ، فيقول (عليه السلام) :

« من غلب عليه سوء الظن لم يترك بينه وبين خليله صلحاً »[5] .

إنّ سوء الظن بالإضافة إلى أثره السيّىء في روح صاحبه وحياته ، له آثار سيّئة أيضاً في أخلاق الآخرين وروحياتهم ، فقد يجرّ من أسيء به الظن إلى الإنحراف عن الإستقامة في الطبيعة والأخلاق إلى الفساد والرذائل ، كما قال علي (عليه السلام) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »[6] .

ويقول الدكتور ماردن أنّ بعض أرباب الأعمال يسيئون الظنّ ببعض

---

(١) انظر الترمذي: كتاب البر، الباب ١٨ ، وابن ماجة كتاب الفتن، الباب ٢ و صحيح مسلم، كتاب البر. الباب ٣٢، ومسند أحمد، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، وج ٣، ص ٤٩١ .

(٢) نهج البلاغة المترجم، ص ١٧٤ .

(٣) غرر الحكم : ص ١٥٤ .

(٤) المصدر: ص ٤٣٤ .

(٥) المصدر: ص ٦٩٨ .

(٦) غرر الحكم : ص ٤٣٣ .

عمالهم أو خدمهم ، فيظنّ السرقة به ـ مثلاً ـ دائماً أنّ هـذا العامـل أو الخادم حتى لو لم يكن كذلك فإنه سيصبح كما يظنّ به الظنّ السيّىء ، فإنّ سوء الظن وإن لم يظهر بيد أو لسان يؤثر أثره فيسمم روح من أسيء به الظن ويسوقه إلى ما يظن به من السرقة مثلاً »(٧) .

وقال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا الصـدد : « إياك والتغـاير في غيـر مـوضعـه ، فـإن ذلـك يـدعـو الصحيحـة إلى السقم ، والبـريئـة إلى الريب »(٨) .

وأنّ من يصاب بسوء الظن بالآخرين يحرم من سلامة الروح والجسم . أيضاً قال (عليه السلام) :

« لا يلفى المريب صحيحاً »(٩) .

وبهذا الصدد يقول الدكتـور كارل : « إنّ بعض العـادات تقلّل من قدرة الفرد على الحياة ، كعادة الانتقاد من كل شيء وإساءة الظن بكل شيء فإن هذه العادات الخلقية السلبية تؤثر في الأعصاب (سمباتيك) والغدد الداخليّة ، وقد تكون منشأ لخلل عمليّ أو عضوي »(١٠) .

ويقول الدكتور ماردن : « إنّ سوء الظن يذهب بالصحّة ، ويضعّف القوى الخلقيّة ، إنّ الأرواح المتّزنة لا تنتظر سوءاً قط ، بل تأمل دائماً أن تواجـه كل خير ، فإنّه يعلم أنّ الخير حقيقة أبديّة ، وأن ليس السوء إلاّ من ضعف القـوى الخيّرة ، كما أنّ الظلام لا يعدّ في نفسه شيئاً مستقلاً بل هو من عدم الضياء . فاسعوا وراء الضياء فإنّ النور يذهب الظلام من القلوب »(١١) .

إنّ سيّىء الـظن يـصـاب بـالـوحـشـة مـن الـنـاس ، كـمـا قـال علي (عليه السلام) :

---

(٧) عن الفارسية : پیروزي فكر.
(٨) غرر الحكم : ص ١٥٢ .
(٩) المصدر: ص ٨٣٥.
(١٠) عن الترجمة الفارسية : راه ورسم زندگي .
(١١) عن الفارسية : پیروزي فكر.

« من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد »[١٢] .

ويقول الدكتور فارمر : « إنّ الذي يخاف من إبداء فكره ونظره صريحاً في مجلس يبدي كل شخص فيه رأيه ونظره ، والذي يلجأ إلى الشوارع الفرعية الضيّقة والأزقّة قليلة المارة حذراً من أن يلاقي أقرباءه في الشوارع الواسعة أو المنتزهات العامة ، إنّ هؤلاء جميعاً يحكمهم الخوف وسوء الظن والتشاؤم »[١٣] .

إنّ من علل سوء الظن الذكريات السوء التي تختفي في روح الإنسان فتجر الإنسان إلى سوء الظن ، قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن للقلوب خواطر سوء والعقول تزجر منها »[١٤] .

ويقول الدكتور هلن شاختر : « إن الذين لا يثقون بأنفسهم يتحسّسون أكثر من اللازم ، فيتألمون من قليل المصاب ، ثم تبقى ذكريات هذه الآلام في نفوسهم من حيث لا يشعرون فتؤثّر في أفعالهم وأعمالهم وأقوالهم وأفكارهم ، فيصابون بضيق الخلق وسوء الظن وهم لا يعلمون لماذا يصابون بذلك إذ أن الذكريات المؤلمة والسيّئة تخفي نفسها في باطن شعورنا ولا تظهر لنا بسهولة ، وبعبارة أخرى أن الإنسان يفر بطبعه من الذكريات المؤلمة وهو لا يحب بنفسه أن يعيد هذه الذكريات من ذاكرته فيضعها نصب عينه ، ولكن العدو هذا المختفي في الذاكرة لا ينتهي عن السوء والبغضاء أبداً فيجعل روحنا وأخلاقنا وأعمالنا كما يشاء ، حتى أننا قد نرى ونسمع من أنفسنا أو الآخرين أعمالاً وأقوالاً لا نرى لها مبرراً فنتعجب لها ، ولكنا إذا تحققنا عرفنا أنها وليدة الذكريات المؤلمة المدخرة في الذاكرة »[١٥] .

إن ذوي الطبائع الدنيئة يجعلون أنفسهم مقياساً لطبائع الآخرين فيرون رذائل صفاتهم منعكسة فيهم ، وقد أشار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)

---

(١٢) غرر الحكم : ص ٧١٢ .
(١٣) عن الترجمة الفارسية : راز خوشبختي .
(١٤) غرر الحكم : ص ٢٩ .
(١٥) عن الترجمة الفارسية : رشد شخصيت .

إلى هذه الحقيقة بعبارة رشيقة إذ قال : « الشرير لا يظن بأحد خيراً ، لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه »[١٦] .

ويقول الدكتور مان : « إن من أنواع ردود الفعل للدفاع عن النفس وسد النقص القاء التبعة على الآخرين ، وذلك بأن ندفع عن أنفسنا ما نحس به من أفكار ودوافع وننسبها إلى الآخرين . وذلك يكون لدفع القلق عن النفس . وهو نوع قبيح من القياس بالنفس . وحينما يشتد هـذا الدفـاع يصل الإنسـان إلى المرحلة المرضية لهذه الصفة ويصبح مـريضاً نفسيـاً . وقد يكـون هذا الـدفاع نتيجة الجريمة ، فحينما نرتكب عملاً إجرامياً ينبه فينا هـذا الإحساس ، فلكي ندفع عن أنفسنا ننسب نفس العمل إلى الآخرين أيضاً »[١٧] .

حينما دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة مهاجراً إليها من مكة ، جاء إليه رجل وقال يا رسول الله إن أهل هذا البلد رجال خير طيبون ، فنعم مـا صنعت إذ هـاجـرت إليهم . قـال (صلى الله عليـه وآلـه وسلم): « صدقت ». ثم جاءه آخر وقال : إن أهل هذا البلد رجال سوء ليتك لم تهاجر إليهم . قال (صلى الله عليه وآله وسلم): « صدقت » ، فسأله بعض من حضر عن تصديقه لهما ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): « أخبر كل منهمـا عما في نفسه ، فكان كل منهما صادقاً » يعني أن كلام كل منهما صادق على نفسه .

ولا يخفى أن المراد من سوء الظن المنهي عنه هو انحراف الفكـر وميل النفس إلى جانب الظن السيّيء والإصرار عليه ، والذي يحرم بعد هذا هو ترتيب الأثر على هذا الظن . وإلاّ فالظنون والأوهام التي تعبر على الفكر ثم لا يرتب صاحبها أي أثر عليها ، فبمـا أنها ليست بـاختيار الإنسـان بل هي خـارجة عن الاختيار ، فامتناع الإنسان عنها أيضاً خـارج عن الاختيار ، فـلا يصلح أن يقع مورداً للتكليف الشرعي .

وعطفاً على ما مضى نقول : بما أن مرارة حياة المتشائمين تنشأ من هذا العيب المشين ، لذلك لا بد أن يمعن النظر في منشأ هذه النـظرة المتشائمـة لديهم ، فإذا عرف لديهم السبب عولجوا من طريقه .

---

(١٦) غرر الحكم : ص ٨٠.

(١٧) عن الترجمة الفارسية : أصول روانشناسي .

الكذب

★ الأخلاق وموقعها في المجتمع .
★ أضرار الكذب .
★ الكذب في الدين .

الأخلاق وموقعها في المجتمع :

إن الأخلاق شرط أساسي في حياة المجتمع وتكامل كلّ أمّة . فقد ولدت الأخلاق مع مولد الانسانية ويكون عمرها مع عمر الإنسانيّة سواء وليس هناك من له أدنى شك في أهميتها ولزومها لسلامة روح الإنسان وراحته وهنائه وسعادته ، ولا ينكر أثرها النافع والقاطع في تقوية مباني الرشد الفكري للمجتمع أو في الإصلاحات العامة . فمن ذا يتألم من الصدق والأمانة ويبحث عن السعادة في ظلّ الخيانة والكذب ؟ كفى في موقعية الأخلاق أن كلّ أمّة حتى ولو لم تكن معتقدة بدين ، تنظر إلى الأخلاق بنظرة ملؤها التقديس والاحترام ، وترى أنّ من اللازم عليها في طي مراحل الحياة الملتوية أن تتّبع سلسلة من أحكام الأخلاق . في طيّ الحياة الممتدّة للبشريّة ، ومع كل الاختلاف في طرقها المختارة في الحياة ، كان للأخلاق أسس ومبان تتشابه صورها في كل مكان وعند جميع الأمم .

يقول العالم الإنجليزي الشهير صموئيل اسمايلز : « إنّ الأخلاق إحدى القوى المحركة لهذا العالم ، وهي في أفضل صورها تجسيد للطبيعة الإنسانية في أعلى أشكالها ، فإنّ الأخلاق صورة عن الإنسانيّة الحقيقية . إنّ المتفوّقين في أي جهة من جهات الحياة يعملون على أن يجذبوا انتباه الناس إلى أنفسهم

مع كل تكريم واحترام ، وسوف يثق بهم سائر الناس ويقلدونهم في كمالاتهم ، إذ يرون أن كل جميل في هذه الحياة يتعلق بهم ، وأنّه لولا وجود أولئك في هذه الحياة لما كانت الحياة لائقة للعيش فيها . إذا كانت الصفات الوراثية (الجينية) الخلقيّة والصورية تجذب انتباه الناس وتقديرهم لها ، فإنّ الأخلاق توجب تعظيمهم واحترامهم لصاحبها ، وتعتبر الخصائص الأولى نتائج (الجينات) الوراثية ، والثانية آثار القوى الفكريّة والعملية ، والفكر ـ كما يعلم الجميع ـ هو الذي يحكمنا مدى الحياة ويدير شؤوننا . إنّ مثل الذين بلغوا في حياتهم ذروة الرقيّ والعظمة كمثل المصابيح العظيمة في دروب حياة البشرية ، فإنهم يضيئون العالم بأنفسهم ويهدون الناس إلى مسالك الفضائل والتقى . إنّه إذا كان الأفراد في أيّ مجتمع غير مهذبين في أخلاقهم ، فإنّهم لا يقدرون على الرقيّ إلى المعالي مهما توفّرت لهم من الحقوق السياسيّة والحريات . أنّه ليس من الضروري لأمّة تريد العيش مرفوعة الرأس عظيمة أن تكون رقعة أراضيها واسعة ، فإنه قد تتسع أمة من حيث العدد ورقعة الأرض ولكنها مع ذلك تكون فاقدة لجميع شرائط التكامل والعظمة . فإنّه إذا فسدت الأخلاق في أيّة أمّة فإنّهم سوف يعدمون » .

إنّ ما يقوله هذا العالم الانجليزي يتفق على صحته جميع الناس ، ولكن الناس يفرّقون بين العلم والعمل فواصل كثيرة ، فإنّهم يجعلون ميولهم الحيوانيّة ـ في مقام العمل ـ بدلاً عن الأخلاق العالية ، فهم يفتّشون دائماً عن الشهوات المغرية التي تظهر على مسرح الحياة كما تتجلّى الفقاعات على سطح المياه براقة لمّاعة وخلّابة .

إن الإنسان خرج من مصنع الحياة مستصحباً معه غرائز في ذاته متضادة تماماً ، فهو في ذاته معترك الصّراع الدّامي بين صفات الخير والشر وأن الخطوة الأولى في تصفية الوجود الإنساني وتنزهه من صفات الشر هي أن يأسر في ساحة هذه المعركة قوى الغضب والشهوة ، فإنّهما منبع لسائر القوى الحيوانيّة ، أنّه يجب على من يريد التكامل أن يحترز من الافراط فيهما ، وأن يبدل ميوله الضارة الناشئة منهما إلى أحاسيس نافعة وجميلة . فإن الإنسان ينتفع كثيراً بعواطفه في حياته ، ولكن إنّما تظهر العواطف خيّرة إذا كانت مطيعة لأوامر العقل في الإنسان . يقول أحد علماء النفس : « إن العواطف الإنسانيّة كمخزن

ذي قسمين فقسم منها ضاغطة والآخر مقاومة ، فلو استطاع الانسان أن ينصر المقاومة على العواطف الضاغطة ، فإنّه سوف يحكم وجوده كما يريد هو لا كما تريد هي » .

إن الذين وازنوا بين قواهم الباطنيّة ووافقوا بين مشتهياتهم وما تحكم به أحلامهم وصالحوا بين قلوبهم وعقولهم ، لا شك أنّهم سلكوا سبيل السعادة بين مشاكل الحياة بإرادة بعيدة عن الضّعف والوهن والفشل . صحيح أن الإمكانيات تحولت اليوم إلى حالة هي في الفعالية والنشاط والحيوية والحركة والسرعة كالطاقة الكهربائية ، وأن البشر اليوم قد بلغ بقدرته ـ بفضل قواه الفكرية ـ إلى أعماق البحار والمحيطات ، ولكن ما نراه مستمراً في قلب هذه الحضارة والمدنية من الشقاء والثورة ـ حتى جعل أهلها بين أمواج من المشاكل والمصائب والعوبة بيد الضياع واللامبالاة ـ لا سبب له سوى الانحراف عن مسير الفضائل الأخلاقية والروحية . يقول الدكتور ژول رومان : « لقد تقدمت العلوم في هذا العهد ولكن توقفت الأخلاق والإحساسات الغريزية في مراحلها البدائية ، فلو كانت هي أيضاً تتقدم بدورها مع العقل والفكر جنباً إلى جنب لأمكننا أن نقول بتقدم الإنسان في إنسانيته أيضاً » .

نعم إن عاقبة المدنية التي لم تفسح المجال لأحكام مكارم الأخلاق بل شطبت عليها ، لا تكون ـ بحكم قانون التوازن والتعادل ـ سوى الفناء والدمار . إن بقاء الشقاء والنقص في المجتمعات اليوم مظهر لإحساس الناس بالحاجة إلى القواعد الخلقية ، وهي قادرة على أن تنفخ ـ إن أتيح لها ـ الروح والحياة في جسم هذه المدنية الميتة ، وتهب لها القوى الحيوية .

* * *

أضرار الكذب :

بنفس مدى منافع الصدق وخصائصه المستحسنة ، وعلى عكسه تماماً تكثر مضار الكذب وقبحه ، فالصدق من أبرز الصفات الحسنة والكذب من أقبحها تماماً ، فإن اللسان ترجمان الإنسان عن أحاسيسه الداخلية ، فلو كان الكذب ناشئاً من الحسد والعداوة فهو من رشحات الغضب الخطيرة ، ولو كان من الطمع أو العادة فهو من شر آثار الشهوة المتأججة في الإنسان .

لو تسمم لسان إنسان بالكذب وظهر رجسه عليه ، كان على شرف صاحبه كما تكون رياح الخريف لأوراق الشجر ، وكما تكون الصاعقة لصرح ممرد من قوارير أن الكذب ينمي في الانسان رجس الخيانة ، ويطفىء فيه مصباح وجدانه وأنه ليفعل الأعاجيب في قطع أواصر الوحدة والوفاق ويوجب شيوع النفاق وإن قسطاً كبيراً من الضلال إنما هو نتيجة الدعاوي الجوفاء والكلمات الفارغة فإن مغرضي السوء إنما يصلون إلى تطبيق مقاصدهم الانتهازية بما يغطون به الحقائق من الكلام المغري الجميل والمعسول ، وإنما يأسرون البسطاء السذج بتلقيناتهم المسمومة .

وأن الكذوب لا يدع لنفسه فرصة التأمل والفكر ، فهو لا يفكر في عاقبة أمره زعماً منه أنه سوف لا يطّلع على سرّه أحد أبداً ، فهو يصاب في كلامه بالخطأ والتناقض ، وسوف يواجه الفضيحة والانكسار والفشل والخجل ، فليس بعيداً عن الصواب ما جرى على الألسن مثلاً يضرب لا ذاكرة لكذوب[١] .

إنّ من عوامل شيوع هذه الخصلة الذميمة التي تسمّم أخلاق المجتمع ما قالوه : « الكذب المصلح خير من الصدق المفسد »[٢] فإنّه أصبح حجاباً يضرب على هذه الدنيئة ، فكثيراً ما يستند الناس لتبرير كذبهم المشين إلى هذا المثل ، غافلين عما يشترطه العقل والشرع في هذا المعنى ، فالذي يقول به العقل والشرع هو أنّه إذا كان الدم أو العرض أو المال الخطير لمسلم في معرض التلف وجب الدفاع بكل وسيلة ممكنة عن وقوع الخطر بإحدى هذه الثلاث من مسلم ، حتى ولو بالكذب ، ولكنّه للضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات ، ولكنها أيضاً تقدّر بقدرها ، فلا يجوز التجاوز في الكذب عن مقدار الضرورة . أما إذا وسّعنا دائرة المصلحة بمقتضى منافعنا الشخصية ومشتهياتنا النفسية ، وأردنا أن نستند إلى هذه القاعدة في كل مصلحة ومنفعة وشهوة ، إذن فلا يبقى أيّ كذب بلا مصلحة كما قال أحد كبار الكتّاب : « لكلّ شيء سبب ، وبالإمكان أن نخلق لكلّ عمل عللاً وعوامل ، وحتى المجرمون المحترفون باستطاعتهم أن يذكروا لإجرامهم عند محاكمتهم أعذاراً وأدلّة . وعلى هذا

(١) مثل فارسي : دروغ گوكم حافظه است.
(٢) مثل فارسي قاله سعدي الشيرازي : دروغ مصلحت آميز به از راست فتنه انگيز.

فلكل كذب يذكر في العالم منافع ومصالح ، أي أنّ لكل كذب جهة نفع وخير ، ولو لم يكن له ذلك لزم أن يكون لغواً وعبثاً وإذا كان كذلك فلا يكون فيه كثير ضرر . وهذا إنما يأتي من حيث أنّ الإنسان بفطرته يحسب كل ما يتفق مع منافعه الشخصيّة خيراً وصلاحاً ، فإذا رأى منافعه الشخصيّة في خطر من الصدق ، أو تصوّر خيراً في الكذب ، كذب ولم يتحرّج ، إذ أنّه رأى في الصّدق شراً وفتنة وفي الكذب خيراً وصلاحاً » .

ولا ينبغي أن نغفل عن أنّ الكذب شرّ كبير ، وإذا ارتفع شر آخر به عند حصول شرائط تجويزه فإنّما يكون من باب دفع الأكثر فساداً بالفاسد .

إنّ حرّية الكلمة أهمّ من الحريّة الفكرية ، إذ لو ظهرت زلّة في الأفكار فإنما تضرّ أصحابها ، بينما تمسّ حريّة الكلمة مصالح المجتمع ، إذن فمنافعها ومضارّها عامّة للجميع .

يقول الغزالي : « إن اللسان من النعم الجليلة ، وهو مخلوق دقيق لطيف . وهو وإن كان في حجمه وجرمه صغيراً فإنه من حيث طاعته وجرمه كبير فإنّ الكفر والإيمان لا يظهران إلاّ باللسان ، وهما منتهى العبادة والمعصية » ثم يضيف : « وإنّما ينجو من شرّه من قيّده بالدين فلا يطلقه إلاّ فيما كان فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته »(٣) .

ويجب أن نحترز من الكذب والكلام على خلاف الحقيقة والواقع أمام الأطفال لئلا تنبت في دخيلتهم هذه الصفة الخبيثة فإنّ الأطفال يقتبسون القول والعمل ممن يمتّ إليهم بصلة وخصوصاً إذا كانت مستمرة ، فلو تسرّب الكذب والقول على خلاف الحقيقة والواقع إلى محيط البيت الذي هو محيط تربية الطفل ، وكان مقال الوالدين وأعمالهما على خلاف الحقيقة والفضيلة فإنهم سوف لا يتربّون على الصدق والأمانة . يقول موريس تي يش : « إنّ عادة النطق بالحقائق والتفكير فيها والسعي وراءها ، إنما هو سلوك من تربّى من صغره عليها فقط » .

* * *

---

(٣) أبو حامد الغزالي ، في كتابه الفارسي : كيمياي سعادت .

الكذب في الدين :

إنّ القرآن الكريم عدّ الكذّاب من الذين لا يؤمنون بكل صراحة ووضوح : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾(٤) ويستفاد من مفهوم الآية أن المؤمن لا يتدنّس بدنس الكذب .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وأن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وأن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(٥) .

ومن خصائص الكذابين أنهم لا يصدقون بشيء إلاّ بعد لأي وشدّة ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الصدد : « إن أشد الناس تصديقاً للناس أصدقهم حديثاً ، وإن أشد الناس تكذيباً أكذبهم حديثاً »(٦) .

ويقول الدكتور صموئيل اسمايلز : « إنّ من الناس من يجعل طبيعته الدنيئة مقياساً لطبائع الآخرين بينما يجب أن نعلم أنّ الناس مرآة لأخلاقنا في الحقيقة ، فما نرى فيهم من الخير والشر فإنما هو صورة عمّا في نفوسنا من ذلك »(٧) .

وأنّ الذي يكون ذا جرأة أدبية وشجاعة أخلاقية فإنّه لا يحوم حول الكذب ، ولا يتدنّس بهذه الرذيلة ، إنّ في دخيلة الكذاب مرضاً نفسيّاً يزيغه عن الاستقامة في الكلام ، وإنما يتوسّل بالكذب من يحس في قرارة نفسه بالضعف والصّغار والذلّة فإنّ الكذب إنما هو ملجأ كل ضعيف خائف وجبان كما قال علي (عليه الصلاة والسلام) : « لو تميزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة وكان الجبن مع الكذب »(٨) .

---

(٤) سورة النحل، آية: ١٠٧.
(٥) نهج الفصاحة: ص ٤١٨.
(٦) نهج الفصاحة: ص ١١٨.
(٧) عن الترجمة الفارسية: أخلاق.
(٨) غرر الحكم: ص ٦٠٥.

ويقول الدكتور ريموند پيج : « إنّ الكـذب خيز سـلاح للدفاع للضعفـاء وأسرع وسيلة لدرء الخطر لهم ولهذا نرى الكذب بين أفراد الدماء الملوّنة رائجاً بكثير ، إذ أنهم كانوا تحت نير البيض يحسّون بنفوذ سيطرة هؤلاء على أنفسهم ومـا يريـدونه منهم . وليس الكـذب في كثير من الأحيـان إلاّ رد فعـل للعجـز والفشل . وحينما نسـأل الطفـل هل أنت مسست هـذه الحلويات ؟ وهـل أنت كسرت المزهرية ؟ فلو كان الطفل يعلم أن الاعتراف يجرّه إلى جزاء شـديد ، كانت (غريزة الدفاع) تدفعه أن يقول : « لا »[٩] .

وقد بيّن الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام) فوائـد الصدق وثمـاره في جملة جليلة إذ قـال : « يكتسب الصادق ثـلاثاً : حسن الثقـة ، والمحبة لـه ، والمهابة منه »[١٠] .

وقد بيّن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ ميزان الصـلاح بنظر الإسـلام إنمـا هـو الصـدق والأمـانـة وليس كثـرة الصـلاة والصّيـام ، وذلـك إذ قال (عليه السلام) : « لا تغترّوا بصلاتهم ولا صيامهم ، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة »[١١] .

وقـال الإمـام أميـر المؤمنين (عليـه السـلام) : « أقبـح الخـلائق الكذب »[١٢] .

ويقول الدكتور صموئيل اسمايلز : « إن الكذب من بين الرذائل الأخلاقية والصفات الذميمة أقبح وألأم وأذمّ ، إنّـه يجب على الإنسان أن يكـون الصّدق والأمانة هدفه الوحيد في جميع مراحل الحياة ، وأن لا يضحّي به في أيّ مورد ولأيّ ملاحظة في سبيل الأغراض والمقاصد الأخرى »[١٣] .

إنّ الإسـلام بنى جميع بـرامجـه الإصلاحيّة والأخـلاقيّـة على أسـاس

---

(٩) عن الترجمة الفارسية : ما وفرزندان ما .
(١٠) غرر الحكم : ص ٨٧٦ .
(١١) أصول الكافي : ج ١ ، ص ٤٦٠ .
(١٢) غرر الحكم : ص ١٧٥ .
(١٣) عن الترجمة الفارسية : أخلاق .

الإيمان ، وجعله أساساً لسعادة الإنسان . يقول دكارت : « إنّ الأخلاق من دون الإيمان كالقصر المشيد على الطين أو الجليد » أو كما يقول عالم آخر : « إنّ الأخلاق بدون الإيمان كحب النبات يزرع على صخرة أو بين أشواك ، فإنّه يذبل ويموت . إنّ أسمى مراتب الأخلاق لو لم يكن مستوحى من الدين فهو كميّت أمام إنسان حي » .

إن الدين يحكم العقل والقلب معاً ، ولهذا فهو ساحة الإصلاح بينهما . إنّ العواطف الدينية تقلل من غلواء الأحاسيس المادّية ، وتجعل بين الإنسان وأنواع الرذائل سدّاً منيعاً . إنّ الذي يطمئن إلى الإيمان يكون دائماً على هدف وطمأنينة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . إنّ الإسلام جعل مقياس شخصيّة الإنسان إيمانه وملكاته الفاضلة ، وسعى سعيه الحثيث لتنمية هذين العمودين فيه ، فجعل إيمانه ضماناً لاعتبار قوله حيث حسب يمينه في قانون القضاء ـ مع الشرائط ـ قائماً مقام الدليل حاسماً للنّزاع ، وشهادته من طرق إثبات الحقوق .

وإذا أبدى الكذب شكله الموحش في هذين الموردين فواضح كم يترتب على ذلك من الضرر الكثير ، حتى أنه يعد من الذنوب غير المعفو عنها ، بحيث قال القرآن فيه : ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ﴾ إذن فملاك شدّة الذنب في الكذب بما ينشأ منه من أضرار ومفاسد ، فالكذب في الشهادة واليمين أضرّ وأفسد وبذلك يكون الذّنب فيهما أعظم وآلأم .

إنّ الكذب وسيلة للوصول إلى سائر الرذائل ، وقد قال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) : « جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب »[١٤] ولكي يتّضح لنا ما قاله الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) نجذب انتباهكم إلى هذا الحديث الشريف : جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الموعظة ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « دع الكذب وتزوّد بالصدق » فذهب الرجل ، ثم كان يقول أنه كان كثير الذنوب ، ولكنه اضطرّ إلى أن يدعها ، إذ لو سئل فصدق فضح نفسه ، ولو كذب خالف ما التزم به وعصى نبيّه ، فبالتزامه بما

(١٤) جامع السعادات: ج ٢، ص ٣١٨.

وعظه به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نجى من الذنوب وطهّر نفسه منها .

نعم إنّ من كان مع الصّادقين فصدق في القول والفعل عـاش بعيداً عن الأسف والحرمان ، نيّر الفكر والروح بالإيمان ، بعيداً عن القلق والاضطراب ، وآمناً من التشويش في الأفكار .

ثمّ إنّ النّظر في عواقب الكذب السيّئة في الدين والدنيا لهو أكبر درس من العبر لمن فكّر وأراد أن يعيش بعزة وشرف وكرامة ، فإنّ عواقب الكـذب سياط للتنبه والاعتبار . إنّ حقيقة الكمال لا تحصل إلا في ظلّ الأخلاق مع الإيمان ، وحيثما لا توجد حقيقة هذا الكمال فليس للسعادة هناك أيّ مجال .

النفاق

★ لنسعى في سبيل تكامل الشخصية .
★ النفاق ، أو أقبح الرذائل .
★ أحرقوا بيوت النفاق .

إن أهمّ عوامل السعادة ، وأسمى ما يتحلّى به الإنسان كمال الشخصيّة إنّ هذه الجوهرة الكريمة والثمينة تهب للحياة عظمتها وأصالتها ، وتبلغ بالإنسان إلى أرقى الرقيّ وأعلى مدارج الفخر والشرف . إنّ الناس من جهة الإنسانيّة متساوون متكافئون ، وإنما يختلفون ويتفاوتون بالعقل والفكر والعادات الروحية والمزايا الأخلاقية ، وقوام الشخصيّة هو كل ما يميّز الأفراد بعضهم عن بعض ويعين قيمة كلّ رجل ومنزلته . وأنّ الشخصيّة لتؤثّر فينا أثراً مباشراً بخلاف سائر المؤثّرات غير المباشرة .

إنّ الإنسان إنما أتى إلى الوجود ليسعى جاداً في سبيل تربية ذخائره الموجودة فيه فيصنع بها سجاياه ، وليوسّع أفق تفكيره وإدراكه فيرفع مستوى معارفه ، ولتتقوّى روحه فيصل بذلك إلى كمال رشده ، وبكلمة ليستطيع أن يؤدّي جيّداً وظيفته الإنسانية في هذه الدّنيا .

إذن فيجب أن يكون هدف الجميع بناء شخصيّة سالمة وعميقة في النفس والعمل في سبيل السعادة ، وكلما سعى الإنسان في هذا السبيل أكثر كان أمله في درك التوفيق الحقيقي أكثر كذلك ، فليس هناك شيء في سبيل حصول السعادة وتأمين مصالح الانسان وإعطائه القدرة على الخوض في بحر الحياة المتلاطم ، أكثر أثراً من بناء الشخصيّة السالمة والبارزة .

يقول شوبنهاور : « إنَّ اختلاف الشخصيّة أمر طبيعي تماماً ، وإنّ أثرها في السعادة والشقاء أكثر بكثير من أثر الاختلاف الذي ينشأ من النظام الوضعي للبشر . فإنّ المميزات الشخصيّة من قبيل العقل الفعّال والعواطف الطاهرة اللطيفة لا تقاس - أبداً - بما يستطيع أن يحصل عليه الإنسان في حياته من المميّزات من قبيل المال والمقام وغيره . إنّ الرجل العاقل إذا كان في عزلة وانزواء كامل استطاع بفكره وخياله أن يصنع لنفسه ألذّ ساعات الحياة ، بينما الجاهل مهما تنوع في وسائل الترفيه والتفريح ، وصرف لذلك مبلغاً عظيماً من النقود لم يستطع أن يتخلص من الكسل الذي يؤذي جسمه وروحه . إن العقل والتدبير والأحاسيس اللطيفة والقدرة على ذلك من أهم العوامل التي تقرب الانسان إلى طريق الهدف في الحياة ، وتفتح له أبواب السعادة . ولهذا فيجب علينا أن نهتمّ بتربية هذه العوامل أكثر مما نهتمّ لتحصيل المال » .

إن لكل صفة من صفات الإنسان وعادة من عاداته نصيباً خاصّاً في تقرير مصير الإنسان ، وإن لكل إحساس وفكر أثراً في تلك الصفات والعادات ولهذا نرى أن الأخلاق لكل شخص في تحوّل دائم ، فإمّا أن تكون في تقدم وتكامل ، وإمّا أن تكون إلى تسافل وانحطاط .

إن الخطوة الأولى إلى تنمية الشخصيّة وتكاملها أن يتعلم الإنسان طريق الإستفادة من القوى والذخائر المودعة في وجوده ، وأن يستعد لمكافحة جميع العوامل التي تشكّل قيداً على الأرجل في سبيل الكمال ، فيطهّر حجره من جميع الرذائل المدنسة ، ولكنه ما لم يعرف قدر نفسه تماماً لا يوفق لإحيائها أبداً ، ولا يتمكن من أن يوجد في نفسه تحولاً مثمراً ، ولا يستطيع أن يطهّر نفسه وروحه مما يلوثها ، بل أنه بدلاً من التكامل سوف يرجع القهقرى إلى الوراء .

إنّه ما لم ينبع القول والعمل من أعماق الوجود فلا قيمة له ، وإنّما يكون الكلام معبراً عن (تماسك الشخصيّة وثباتها وأصالتها) فيما إذا كان ترجمان القلب ومفصح أسراره ، وكان يزخر بآيات الشرف والكمال . أمّا إذا كان هناك تباين وتضاد بين الكلام والقلب فإنّه يكون من آيات (انفصام الشخصيّة وعدم تماسكها وعدم ثباتها) ، ويكون له أسوأ الأثر وأمرّ النتائج في حياة الانسان .

***

النفاق ، أو أقبح الرذائل :

إن النفاق من أقبح الرذائل الأخلاقية الذميمة من كل جهة . إنّ الطبيعة الإنسانية المستعدة للسعادة والحرّيّة والرقيّ إلى أعلى مراقي الحياة حينما تتلوّث بالكذب ونكث العهد وخلف الوعد ، يجد النّفاق لنفسه مجالاً واسعاً للتوغل في هذه الطبيعة الملوثة ، فيتوغّل فيها حتى يصبح كالمرض المزمن في النفس . إنّ النفاق يمنع من الوصول إلى الحقيقة والسعي في سبيلها ، ويصبح سداً منيعاً دون حصول الإنسان على الصّفات الخيّرة ، ومن الطبيعيّ أن يكون كل ما يسدّ سبيل الرشد والكمال النفساني مما يناقض الحياة السعيدة التي لا تحصل إلاّ بكمال الروح .

إن النفاق آفة خطيرة تهدد شرف الإنسان وكرامته ، وتجرّه إلى اللامبالاة والانحطاط الخلقي ، وتعوّض صاحبها عن ثقته بنفسه ـ وهي ضرورية للموفقيّة في الحياة ـ سوء الظنّ والتشاؤم والقلق والاضطراب في أعماق قلبه .

إنّ من بلغ في انحرافه الخلقيّ إلى نهاية الحضيض يري نفسه للناس ـ بمهارة فنيّة ـ أنه يريد الخير لهم ، وإذا كان بين شخصين شحناء عاشر كليهما وهو يريهما وجه المحبّ المخلص ولسان الودود ، وانتقد الآخر ولامه ليظهر لهذا حبّه ودّه وإخلاصه بينما ليس له مع أيّ منهما أيّة رابطة معنويّة أو روحيّة ، بل هو يكذب لهما وعليهما ويريهما ويتظاهر لهما بما يريدان وإنّ المماشات بالتصنّع والرّياء مع عقائد الآخرين والامتناع عن إظهار الحقّ والحقيقة في موارد اللزوم لهو من خصائص المنافقين أيضاً .

إن المنافق أخطر بكثير من العدوّ اللدود ، ويقول أحد المفكرين الكبار : « إنّ من خصائص الأعداء أنّهم أعداء في الظاهر والباطن ، فإنّ العداوة ذات لون واحد وليست ذات لونين مختلفين ، وليت الأصدقاء أيضاً كانوا كالأعداء بلا رياء ، ولا شك أنّ الأصدقاء المنافقين أسوأ من المنافقين » .

إن حياة المنافق خليطة بالذلة والصغار ، إنّ من اعتاد النّفاق لا يستطيع أن يشغل بودّه أيّ شيء من قلوب من يعاشرهم . وأن سعيه في إخفاء الحقائق لا يدعه آمناً من القلق والاضطراب ، وأنه ستظهر ماهيّته في أفعاله يوماً مّا لا محالة .

وأن إحدى علل شقاء المجتمع هو شيوع الرياء فيهم وعدم الصدق والصّفاء بين مختلف طبقاته ، وإذا تسرى النفاق في بناء المجتمع وخيّم على سماء القلوب ، فبالاضافة إلى ما يبدو في طبيعة أفراده من الاختلاف والانحطاط أن هذا المجتمع لا يكون إلاّ في طريق السقوط والفناء . يقول العالم الانجليزي الشهير صموئيل اسمايلز : « إن أخلاق الرجال السياسيين في عصرنا هذا ليس إلاّ في طريق الفساد والانحطاط . إن الآراء التي يبديها الرجال في غرف الاستقبال تختلف مع ما يقولونه في خطاباتهم العامة ، فإنهم في المحافل العامة يشجّعون الناس على ما فيهم من التعصّب العنصري والقومي والوطني بينما هم يضحكون على هذه الأمور ويسخرون منها في مجالسهم الخاصة ، إن تلوّن الفكر يوجد في هذا العصر أكثر بكثير من أي وقت مضى ، وأن المبادىء تتغيّر وتتبدل باختلاف المنافع في كل آن ، وأرى أن الرياء والتصنع سيخرج شيئاً فشيئاً عن صف الملكات الذميمة إلى عكسها وإذا اعتادت الطبقة الأولى من المجتمع على الرياء والتلون فإن سائر طبقات المجتمع سوف لا يتأخّرون عن اللحاق بهم في هذا ، فإن الطّبقات العامة يقتبسون أخلاقهم وسلوكهم من الطبقات العليا ، فسيعتادون مثلهم على التصنّع والنّفاق . إن الشهرة التي تكتسب هذه الأيام بدل أن تعرّف الشخص إلى الملأ بحسناته ومزاياه تبيّن صفاته الدنيئة والقبيحة . وفي المثل الروسي : «إن من يكون عموده الفقري قوياً فلا يترقّى المناصب العالية » ونقول : « ولكن الذي يحب الشهرة يصبح عموده الفقري ضعيفاً رخيّاً منعطفاً ، يستطيع أن يحني ظهره حيثما كانت الشهرة . إنّ الشهرة التي تحصل بإغراء الناس وكتم الحقائق عن العموم ، والتكلم والنشر كما يشاء ذوق الطبقات السافلة وأسوأ من ذلك الاستفادة من النفاق والشقاق بين طبقات المجتمع ، إنّ هذه الشهرة لا تكون في نظر الأناس الصالحين إلاّ دنيئة ومنفورة ، ولا يكون لصاحبها في نظرهم أي وزن أو مقدار » .

إنّ الصفاء والصّدق من علائم الإنسانيّة والضمير الطّاهر ، وهو من أنبل الصفات في الحياة . إنّ هذه الصفة التي تنشأ من الروح الطاهرة توجب تماسكاً في الشخصية ، وصلحاً واتحاداً وقوّة في الأمّة ، فطبيعيّ أن يحب الإنسان أصدقاءه المخلصين أكثر بكثير ممن يشكّ في إخلاصهم ، وتبلغ هذه المحبّة للمخلص عكسيّاً بمقدار ما تبلغ إليه الكراهية من معاشرته للمنافقين .

***

أحرقوا بيوت النفاق :

حينما كان الإسلام يتقدم بسرعة إلى الأمام ، أخذ حزب المنافقين ـ الذين رأوا موقعهم مهدداً بالخطر أكثر من سائر الأحزاب المعارضة ـ يسعون في تحطيم أركان الحكومة الإسلامية . أنّهم كانوا يعاهدون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنّهم كانوا يتخلون عن وظائفهم عند العمل ، وكانوا يستهزؤون بالمؤمنين . إنّ هذه الأقليّة المفسدة المخربة التي لم يكن لها أيّة شخصيّة معنويّة أو أخلاقية ، لم تكن تتحمل إيمان الناس وإخلاصهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وكان على رأس هؤلاء (أبو عامر الرّاهب) الذي كان قبل هجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة زعيم أهل الكتاب وكان قد حصل من هذا الطريق على سمعة بين الناس ، وكان قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يبشّر الناس بقدومه ، ولما قدم (صلى الله عليه وآله وسلم) أسلم في أوائل الناس ، ولكنّه حينما رأى أنّه سيفقد موقعه الاجتماعي بتوسعة نفوذ أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستطع أن يتحمّل هذا الوضع ، فانتقل إلى مكة ، وأخذ يشترك مع المشركين في حروبهم في بدر وأحد ، ثمّ هرب إلى الرّوم ، وكان هناك يخطّط الخطط لاقتلاع شجرة الإسلام ، وبوحي منه بنى أصحابه بالمدينة (مسجد الضرّار) ولم يكن لأحد أن يبني مسجداً إلاّ برخصة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فتزعّم أحدهم لأخذ الرخصة من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك ، وأذن لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبنى المسجد ، وحينما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من غزوة تبوك دعوه لافتتاح ذلك المسجد ، وكانوا يترقبون أن يفعلوا ما نووا من الشرّ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكن الله أطلع رسوله على ذلك فامتنع من الذهاب إلى المسجد وأمر بتخريبه ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . . . ، والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وأرصاداً لمن حارب الله ورسوله . . .** ﴾ .

وهكذا فشل تخطيطهم الخيانيّ ، وأحرق أوّل بيت وضع للنفاق .

إنّ القرآن الكريم انتقد هذه العدّة اليسيرة وهجم عليهم وطردهم ولامهم في موارد مختلفة : ﴿ ومن النـاس من يقول آمنـا بالله وبـاليوم الآخـر وما هم بمؤمنين * يخـادعـون الله والـذين آمنـوا * ومـا يخـدعـون إلا أنفسهم ومـا يشعرون * في قلوبهم مرض فـزادهم الله مرضـاً ولهم عذاب أليم بمـا كانـوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾[1] .

إنّ النفاق نوع من الأمراض الروحيّة من قبيل عقدة الحقارة ، ولعل أمير المؤمنين (عليه السلام) أشار إلى هذا حيث قال : « احذروا أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون المولون ، قلوبهم دوية ، وصحافهم نقية »[2] .

ويقول الدكتور هلن شاختر : « هناك من يخالف لا لشيء إلّا ليعرف ، لم يتحقق في عقيـدته ولا يؤمن بهـا ولكنّه يـرجح النقـد في عقائـد الآخرين على الصمت والخمول ، لأنّه يعسر عليه أن يتحمل عدم اعتناء الآخرين به . وهناك من إذا رأى أن الناس لا يتوجّهون إليه اتخذ طريق النّفاق ستاراً للخلاف وإثبات الوجود »[3] .

وقال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « المنافق قوله جميل وباطنه عليل »[4] .

وحيث لا يجد المنافق لنفسه سناداً يستند إليه فهو في حيرة دائمة ومن هنا نجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد شبّه المنافق مجسّداً هذا المعنى إذ قال :

« مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين »[5] .

وقد بيّن لنا علائم المنافق فقال : « وللمنافق ثـلاث علامـات إذا حدث

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨ ـ ١٢.
(٢) غرر الحكم: ص ١٤٦.
(٣) عن الترجمة الفارسية: رشد شخصيت.
(٤) غرر الحكم: ص ٦٠.
(٥) نهج الفصاحة: ص ٥٦٢.

كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[٦] .

وقال الأمام الباقر (عليه السلام) : « بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً ، إن أعطى حسده وإن ابتلى خذله »[٧] .

وأشار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى صفة أخرى من صفات المنافق فيقول عنه أنّه يدافع دائماً عن نفسه ويطعن على الآخرين : « المنافق لنفسه مداهن ، وعلى الناس طاعن »[٨] .

ويقول الدكتور صموئيل اسمايلز : « إنّ المرائين والمنافقين يفكرون في أنفسهم دائماً ولا يفكرون فيمن سواهم أبداً ، يفكرون في أنفسهم وأعمالهم وأحوالهم حتّى يصبح وجودهم الحقير والضئيل معبودهم العالمي الكبير »[٩] .

وعدّ الامام الصادق (عليه السلام) من مواعظ لقمان لابنه أنّه قال : « وللمنافق ثلاث علامات يخالف لسانه قلبه ، وقلبه فعله ، وعلانيته سريرته »[١٠] .

إنّ أفكار المرء تبدي للملأ صورته الواقعيّة ، فلو أراد أحد أن يخفي بالرياء والتصنع ما في قلبه لم يوفّق إلى ذلك ، فإن حقيقته وماهيّته ستبدو في النهاية ، بل منذ البداية .

فإنّه سأل الإمام الصادق (عليه السلام) رجل : « عن الشخص يقول لي : أودُّك . فكيف أعلم أنه يودّني ؟ فقال : أمتحن قلبك ، فإن كنت تودّه فإنه يودّك . انظر قلبك فإن أنكر صاحبك فإن أحدكما قد أحدث شيئاً »[١١] .

ويقول الدكتور ماردن : « إن كنتم تتصوّرون أنّكم تستطيعون أن تعرّفوا أنفسكم إلى الناس بأقوالكم فقط ، فإنّكم تكونون بتصوّركم هذا قد غششتم

---

(٦) بحار الأنوار: ص ٣٠، ج ١٥ .
(٧) بحار الأنوار: ص ١٧٢، ج ١٥ .
(٨) غرر الحكم: ص ٨٨.
(٩) عن الترجمة الفارسية: أخلاق.
(١٠) بحار الأنوار: ص ٣٠، ج ١٥.
(١١) الوافي: ج ٣، ص ١٠٦ .

أنفسكم وخدعتموها ، فإن الآخرين سوف لا يحكمون فيكم بما تشاؤون أنتم من مقاييسكم ، بل أنّهم سيعرفونكم بأقوالكم وأفعالكم وأعمالكم وأحوالكم وضمائركم ودخيلة أنفسكم أن الذين تتحدثون معهم سيشاهدون قوّة أفكاركم أو ضعفها ، ورياءها أو حقيقتها من كلامكم بل حتى من سكوتكم ، أنّهم يكتشفون آمالكم ومقاصدكم ، ثمّ يقطعون بما يعتقدون منها فيكم حتى أنّكم مهما اعترضتم عليهم فيما يفكّرون فيكم لم يغيّروا من ذلك شيئاً . قد نسمع من أناس أنهم يقولون أنّا لا نستطيع أن نتحمل فلاناً حتى صورته ، إن هؤلاء لا يحبّون أولئك ـ مع ما رأوا منهم من وجه وفعل جميل ـ لأنهم قد قرأوا أفكار أولئك وإحساسهم . ونحن أيضاً كذلك بالنسبة إلى الآخرين ، فإن هذه من آثار الأفكار ، فما نفكّره من فكر أو نحسّه من إحساس فإنّه ينتشر من حولنا ويحسّه الآخرون بأشعّة أفكارهم »[١٢] .

وقال علي (عليه السلام) : « الضمائر الصحاح أصدق شهادة من الألسن الفصاح »[١٣] .

ولا يخفى أن غرضنا من النفاق ما هو أعمّ من النفاق العقائدي والأخلاقي في الفعل أو القول . فإن الإسلام قد دعى المسلمين إلى الوحدة الكاملة التامة ، لكي يقودهم إلى حياة صافية ، عارية من قتام النفاق والرياء والدجل .

---

(١٢) عن الترجمة الفارسية : پيروزي فكر.

(١٣) غرر الحكم : ص ٥٠١ .

الغيبة

★ المجتمع الملوث بالذنوب .
★ أضرار الغيبة في المجتمع .
★ أسباب هذا المرض الروحي وعلاجه .
★ الدين يحارب الأخلاق الفاسدة .

لا شك أن مجتمعاتنا اليوم مصابة بأنواع من الانحرافات الروحية ، مرتطمة في بحر من المفاسد النفسية ، وقد تقهقرت في أخلاقها بمقدار ما تقدمت في تأمين وسائل الحياة لنفسها ، وهي بمرور الأيام تزداد أسقاماً ملأت محيط الحياة آلاماً قاتلة . فالذين سعوا في سبيل الفرار من الآلام سعياً حثيثاً تراهم قد آل أمرهم في النهاية إلى التورط في الآثام وإلى اللجوء إلى أحضان الرّذائل ، كي يخفّفوا عن أنفسهم الآلام الروحيّة ويقلّلوا القلق والاضطراب ، وهيهات أن تشعّ شمس السعادة النيّرة في حياة هؤلاء .

وكأنّما تحرّر آحادهم عن جميع القيود والشروط ، وجعلوا يتسابقون في الانحطاط والسقوط ، ونحن إذا لاحظنا جيّداً رأينا أنهم يستعملون وسائل التقدم المتزايدة يوماً بعد يوم في ضدّ ما وضعت له ، وقد أصبحت المظاهر المادّيّة محور المنى والآمال ، وأصبح ظلام الآثام مضللاً على هذا المجتمع .

فيا ليتهم كانوا يصرفون جزءاً من هذه الثروة الطائلة التي يصرفونها في الضلال والضياع ، في توسعة نطاق الأخلاق ، والقوانين الأخلاقية ثابتة لا تقبل التبديل ، ومع ذلك فهي دائماً في معرض التغيير والتحول ، تبدو كلّ يوم في شأن . وواضح من دون بيان أنّه ما لم تصبح الفضيلة مقياس الشخصيّة في

مجتمع مّا فإن الأفراد في ذلك المجتمع سوف لا يلتفتون إليها أبداً ، بـل أنّهم يتأثّرون بالعقل الجماعيّ في بيئتهم فيتبعون كلّ ما أقبل عليه الآخرون من دون أن يفكّروا في عواقبـه السيّئة . وينبغي أن نعلم من هنـا أن المدنيـة والحضارة الحديثة لا تستطيع أن تـوجد الأخـلاق الفاضلة الصحيحـة ، ولا تقدر على أن تضمن سعادة المجتمع وصلاحه . يقول العالم الفرنسي الدكتور كارل : « إنّنا بحاجة إلى عالم يقدر فيه كل واحد منّا على أن يجد لنفسه المكان المناسب في الحياة ، ولا يفرق فيه بين المادة والمعنى ، فنعلم كيف نعيش ، إذ أنّا قد علمنا الآن أن السير في درب الحياة بدون دليل أمر خطير والعجيب أن التفاتنا إلى هذا الخطر كيف لم يبعثنا على السعي في سبيل تحصيل الوسائـل للعيش المعقول في هذه الحياة والحقيقة أن الذين يلتفتون الآن إلى هذا الخـطر عدد قليـل من الناس ، وأنّ القسم الأعظم منهم يعيشون في اتّباع أهـوائهم وهم مهما وفّـرت لهم التكنولوجيا المادّيّة من وسائل الحياة في سكر عظيم ، ولا يرضون بأن يدعوا بعض هذه المزايا الحضاريّة والمدنيّة . إنّ الحياة اليوم أصبحت كمياه نهر عظيم تسرّبت إلى منحدر من الأرض ، فهي تنحدر خلف آمالنا وأمانينا وبالتّالي تجرّ إلى أقسام من الانحطاط والفساد ، لإرضاء الأمنيات والمنافع الشخصية العاجلة والأفراح ، إن الناس قد أوجدوا لأنفسهم حوائج جديدة وهم يسعون جادّين في سبيل سد هذه الحوائج وهناك إلى جـانب هذه الحـوائج والأميـال أهواء أيسـر استجابة من هذه الحوائـج يفرح بهـا الناس فـرحاً عـاجلاً كـالغيبة ، واللغـو ، والسفسطة . . . وهي أضرّ عليهم من الكحول » .

إن إحدى المفاسد الاجتماعية التي نبحث عنها هنـا هي الغيبة . ولسنـا بحاجة إلى أن نوضّح معناها الاصطلاحيّ ، فإنه يدرك معناها كل عالم وجاهل بكل سهولة ويسر .

***

أضرار الغيبة :

إن أول أضـرار الغيبـة تحـطيم الشخصيـة المعنـويـة والـوجـوديـة لنفس المتكلّم ، فإن الذين يخرجون أفكارهم من مسيرها الطبيعي سوف يفقدون اتزان الفكر والتنظيم الخلقي الرفيع ، وهم بإشاعة المعايب والأسرار يجرحون قلوب

الناس .

إن الغيبة تحطّم صرح الفضيلة الإنسانيّة ، وتفقد الإنسان سجاياه وملكاته الفاضلة بسرعة هائلة ، بل أنها تحرق عروق الفضائل في قلب القائل وتعدمها . وهي تنحرف بمسير الأفكار الطاهرة إلى حيث تنسدّ على الإنسان نوافذ العقل والفهم . وإذا لاحظنا أضرارها في المجتمع نراها قد حطّمت المجتمع تحطيماً عظيماً ، وقد لعبت دوراً مهمّاً في إيجاد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ، بحيث أنّها لو توسّعت في أمّة حطّمت عظمتها وسمعتها وأوجدت بينهم شقّاً عميقاً وكسراً لا يجبر .

ونأسف أنّه يجب علينا أن نعترف أن الغيبة اليوم قد وجدت لنفسها مكاناً بين جميع الطبقات فأنّه كما ترتبط اليوم حوادث الحياة كذلك لو بدى على أمّة أيّ انحراف روحي أو نفسي فهو يسري إلى سائر الطبقات بسرعة ، وعلى أثر توسّع نفاق الغيبة نرى اليوم أن اليأس والشؤم قد خيّم على أفكار المجتمع ، فقد فقدوا الثّقة المتبادلة بينهم وعوّضوا عنها بنوع هائل من فقدان الثقة عجيب ، وعلى هذا نقول أنّه ما لم يتنوّر المجتمع بنور التفكير الأخويّ بصفات عالية فلا مجال فيه للصفاء والوحدة . وأن مجتمعاً لا يتنعّم بنعمة الأخلاق الحميدة لهو بعيد عن مزايا الحياة الحقيقية .

* * *

أسباب هذا المرض الروحي وعلاجه :

إن الغيبة وإن كانت من الذنوب العملية ولكنها ترتبط بروح الانسان ارتباطاً مباشراً ، فهي علامة على اضطراب نفسي خطير ، يجب أن نفتّش عن منشئه في زوايا الرّوح والنفس .

وقد ذكر علماء الأخلاق للغيبة أسباباً أهمّها الحسد ، والغضب ، والعجب ، والكبر ، وسوء الظن . ولا شك أنّ جميع الأعمال التي تصدر من الإنسان كأثر من آثار وجوده هي مسبّبة عن حالات مختلفة متحقّقة في باطن الإنسان ودخيلة نفسه ، وعلى أثر تحقق إحدى هذه الأوصاف المذكورة التي تكمن في النفس الإنسانيّة كالجمر تحت الرماد ، ينطلق اللسان بالغيبة ، فإنّ اللسان ترجمان الإنسان .

وإذا ترسّخت صفة في النفس الإنسانية أعمت عينيه وحكمت على أفكاره وأنّ شيوع مرض الغيبة بين الناس إنّما هو على أثر تكرر هذا الفعل من دون التفات إلى ما يترتب عليه من العقوبة ، فإنّا نرى كثيراً من الناس يحترزون عن سائر المعاصي ولا يبالون أن يرتكبوا هذا الذنب العظيم ، وإنّ تكرار العمل بلا تعقّل لعواقبه يصل بالإنسان إلى حالة لا يستطيع معها أن يغضّ بصره عمّا يشتهي حتى ولو كان ملتفتاً إلى حقيقة العمل عالماً بآثاره ، وحتى لو كان بفطرته في طلب الكمال ولكنّه مع ذلك يبتعد عن العمل في سبيل الكمال ، إذ لا يرضى أن يتحمل في سبيل نيل السعادة أدنى تعب أو ألم ، ومن هنا فهو يقع فريسة تحت حكم الشهوة الدنيئة .

إنّ الذين لا يلتزمون بشرفهم وبحفظ شرف الآخرين لا يتقيدون بشريعة الأخلاق ، ومن جعل الحياة ساحة شهواته متجاوزاً على حقوق الآخرين لخليق بالشّقاء .

وإنّ ضعف الأخلاق من ضعف الإيمان ، فإنّ ظهور الخلق وبقاءه من آثار العقائد ، فإنه ما لم يستند الإنسان إلى الإيمان لا يجد باعثاً على الفضيلة ولا ملزماً بالتقيّد بالأخلاق .

ولكل إنسان رأيه ـ حسب سليقته واستعداده ـ في طريقة إنقاذ الناس من الضّلال والمفاسد الأخلاقيّة ، وبنظري أن أكثر الطرق تأثيراً هو إيجاد موجبات الصّلاح في النّاس أنفسهم بإيقاظ الإحساسات الخيّرة وتنبيههم إلى استجابة نداء فطرتهم ، وأن يصرفوا ذخائرهم الفكريّة في سبيل سعادتهم . فإنّنا بالإلتفات إلى العواقب السيئة للصّفات الذميمة وبتقوية الإرادة نستطيع أن ننتصر على الرذائل الأخلاقية ، وأن نرفع عن أنفسنا أغشية الظلمات ونستبدل عنها الصّفات العالية .

يقول الدكتور ژاگو في كتابه (قدرة الإرادة) : « إنّنا حينما نريد أن نحارب عادة سيّئة يجب أن نجسّد في أنفسنا عواقبها الوخيمة ، ثم نتصور المنافع والمصالح التي تعود إلينا على أثر ترك تلك العادة ، ثم نجسّد في أذهاننا مسارح الحياة والمواقع المختلفة التي أصبحنا نحن فيها ضحية لتلك العادة . فإذا شاهدنا في أنفسنا هذه المسارح انتصرنا على الوسوسة لتلك العادة الضارّة

بإحساسنا للّذة في تركها وطردها » .

. وبوجود بذور التكامل في النفس الإنسانية وتجهيزها بوسائل الدّفاع ، نستطيع أن ندرك منشأ الضّلال والضّياع ، ثم ندفعها عن ألواح أرواحنا ونفوسنا ، ونوجد سدّاً منيعاً أمام ميولنا وأهوائنا غير المتناهية .

إنّ أعمال الناس مظاهر شرفهم وواقعيّتهم ، فإنّها هي التي تبدي لنا الشخصيّة الواقعيّة لكلّ إنسان ، فإذا كان الإنسان مريداً لسعادته كان عليه أن يزكّي أعماله كي تصبح منشأ لآثار ثمينة ونفيسة ، كان عليه أن يرى الله مراقباً لأعماله وكان عليه أنْ يكون خائفاً من جزائه الأخروي ، مطمئناً إلى أنّ كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها .

كان أحد الفلاسفة يقول : « لا تقولوا أنّ العالم غير عاقل ولا شاعر ، فإنّكم بقولكم هذا تسندون إلى أنفسكم اللاشعور واللامعقول ، ولو لم يكن في العالم شعور ولا عقل لما كنتم عقلاء ولا شاعرين » .

كما أنّ المجتمع بحاجة إلى أدوات العيش لإدامة الحياة ، كذلك وبنفس المقدار بحاجة إلى الصّفاء لدوام الروابط الروحيّة بين المجتمع ، ولو كان المجتمع يعمل بوظائفه الاجتماعية الثقيلة لاستفاد من المعنويات في سبيل التكامل فائدة كبرى ، إنّنا يجب علينا أمام الأفكار الضارّة أن ننمّي في أنفسنا الأفكار السامية كي نخرج أرواحنا من الظّلمات إلى النّور ، وبصيانة ألسنتنا عن الغيبة نخطو أولى الخطوات في سبيل السعادة . ويجب علينا أمام انتشار المفاسد في المجتمع أن نوجد في الناس نهضة نفسية ، نحيي بها روح رعاية حقوق الآخرين وبذلك نبسط فيهم أصول الإنسانية والمعنوية ، وأن نخطو في سبيل تحكيمْ الأسس الأخلاقيّة التي هي رمز بقاء المجتمع خطوات أساسيّة حسب المستطاع . وإذا نحن أوجدنا في الأفراد نهضة نفسيّة تأكدت لديهم روح المطاوعة ، وبهذه الروح التزموا بجميع المقررات الإجتماعية والأخلاقية .

* * *

الدين يحارب مفاسد الأخلاق :

إن القرآن الكريم جسّد حقيقة الغيبة في جملة قصيرة كافية بليغة في

التشبيه إذ قال : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . . . ﴾[1] فكما يتنفر طبع الإنسان من أكل لحم الميت كذلك يجب أن يحذر الإنسان بعقله عن الغيبة . لقد اهتمّ قادة الدين بتعديل العواطف والصفات النفسيّة كما اهتموا بمكافحة الشرك واللادينيّة ، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنما بعثت لأتمم لكم مكارم الأخلاق »[2] ، ولهذا فقد هدي الناس جميعاً إلى الفضائل ببرنامج الإسلام السعيد وبمنطق قوي سديد ، واعتبر التعدي عن حدود الفضيلة جرماً وشدّد عليه النكير .

ولم يحسب الغيبة واستماعها جرماً فحسب بل جعل الدفاع عن شرف الغائبين من وظائف جميع المسلمين الحاضرين إذ قال : « إذا أوقع في الرجل وأنت في الملأ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً ، وقم عنهم »[3] .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): « من ذب عن عرض أخيه بالغيبة : كان حقاً على الله أن يقيه من النار »[4] .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): « من اغتاب مسلماً لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة ، إلا أن يغفر له صاحبه »[5] .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): « من اغتاب مسلماً في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه »[6] .

وعرّف المسلمين بالمسلم فقال : « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه »[7] .

واضح أن من أطلق لسانه في غيبة أخيه المسلم فقد تجاوز عن الفضيلة ، وأصبح مجرماً لدى الإنسانيّة والإسلام ، فقد أجمع علماء الإسلام على عدّ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢ .
(٢) حديث مشهور.
(٣) نهج الفصاحة: ص ٤٨ .
(٤) المصدر: ص ٦١٣.
(٥) و(٦) بحار الأنوار: ج ٦، ص ١٧٩ .
(٧) حديث مشهور.

الغيبة من كبائر الذنوب ، فإنّ مرتكبها يخالف الحكم الإلهي وهو متجاوز على حقوق المخلوقين غير مبال بحقوق الخالق .

كما أن البدن الميّت لا يستطيع الدّفاع عن نفسه والمنع عن التعدّي عليه ، كذلك الغائب لا يقدر على الدفاع عن شرفه وماء وجهه عند الآخرين وكما تجب على الإنسان رعاية حقوق الآخرين في أجسادهم كذلك يجب عليه رعاية حقوقهم في كرامتهم أيضاً .

إن غيبة الناس وتعييرهم في النفس نوع من الضغط الروحي فقد قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الغيبة جهد العاجز »[٨] .

ويقول الدكتور هلن شاختر : « إنّ خيبة الأمل في حوائج الإنسان توجب له ألماً روحيّاً ، والآلام الروحيّة تدفعنا إلى تدبير دفاع بعمل ما ، وليس كلّنا سواء في ذلك العمل الذي يدبره لرفع ألمه النفسيّ الحاصل من خيبة الأمل ، وإذا رأى الشخص أنّ الناس لا يلتفتون إليه كما يتوقّع منهم رجح العزلة والانزواء على الاختلاط والمعاشرة خوفاً منه أن يقع موقع التحقير ، أو جلس بين الناس في زاوية المجلس متألماً مضطرباً خائفاً ساكتاً صامتاً لا يتكلّم بكلمة أو خالطهم ومازحهم ليسخر منهم ويضحك لنفسه في غير مناسبة ، أو تشاجر مع الحاضرين واستغاب الغائبين وانتقد من الآخرين حتى يفرض نفسه عليهم بهذه الطرق »[٩] .

ويقول الدكتور (مان) في كتابه (أصول علم النفس) : « وقد نذهب في جبران انتكاساتنا وستر عيوبنا من طريق أن نلقي الذنب على عاتق الآخرين فنحفظ بذلك كرامتنا في أنفسنا فإذا رسبنا في امتحان ألقينا اللوم على المعلّم أو أسئلة الامتحان ، وإذا لم نصل إلى مقام قصدناه استهنّا بالمقام أو من أشغله ، أو جعلنا المسؤولية في ذلك على الآخرين ، وليس عليهم أيّة مسؤوليّة في الواقع » .

---

(٨) غرر الحكم : ص ٣٦ .
(٩) عن الترجمة الفارسية : رشد شخصيت .

ونستنتج من هنا أنّه يجب علينا أن ننميّ عواطفنا الطيبة بجهـاد النفس مع خلوص النيّة ، وأن نبدأ الإصلاح والتهذيب من أنفسنـا ، حتّى نحصل بـذلك على أرضيّة مساعدة لسعادتنا وإصلاح مجتمعنا في جميع شؤونه .

السخرية والتعيير

★ الغفلة عن النفس .
★ جماعة العيارين والمستهزئين .
★ نظرة في التعاليم الدينية .

أنّ من النقائص الأخلاقيّة الكبيرة للإنسان غفلته عن عيوب نفسه . وأنّ الضلال والضياع في الأكثر نابع من الجهل والغفلة . فكم سكنت في النفس عند غفلتها عن نفسها صفات ذميمة أصبحت أساس الشقاء . وحين يصبح الإنسان عبداً لنفسه الجاهلة يميت في نفسه روح الفضيلة ، فإنّه يصبح ضحية لميوله وشهواته المختلفة فيبعد عن حريم السعادة ويحرم من نعيمها ، ولا ينفع ـ والحال هكذا ـ أي نوع من الإرشاد والهداية الأخلاقية .

إنّ أول شرائط إصلاح النفس درك عيوبها ، فإنّه إنّما يستطيع الإنسان أن يقطع حبائل الرذائل وأن ينجو من أخطار عيوب النفس التي تنتهي إلى الشّقاء فيما إذا اطلع عليها . وأنّ النظر في خصائص النفس الإنسانيّة في سبيل تربيتها أهم ما يكون ، فإنه لا يبلغ الإنسان إلى كماله المعنوي والأخلاقي إلاّ من هذا السبيل فحسب ، فإنّ النظر في النفس يمكّنه من درك نقائصها وكمالاتها ، ومن أن يخرج الصّفات الشيطانية من خبايا نفسه من بين الصفات المختلفة الكثيرة ، وأن ينزه مرآة نفسه من لوث الآثام بتصفيتها تصفية أساسية .

إننا إذا لم نلاحظ صورتنا الواقعية في مرآة أعمالنا بالتّسامح والتّساهل ، فقد ارتكبنا بعدم الاعتناء بذلك خطأً كبيراً غير مغفور ، فإننا مكلّفون قبل كلّ شيء أن نرى خصائصنا الذاتيّة ونوعيّة صفاتنا النفسيّة ، حتّى نعرف بذلك تلك

المعايب التي عرقت ونمت وترعرعت فينا في غفلة عنّا ، وأننا نقدر على أن نقلع هذه العروق من أنفسنا بالسعي المتواصل ، وأن نمنعها من الظهور في حياتنا ، أو أن نفسح لها المجال بل نوسّعها استطاعة واستطالة وقدرة . ولا شك في أن اصلاح النفس وتهذيبها ليس أمراً سهلاً ولا يتحقق ذلك بسهولة أبداً ، بل أنّه يستلزم تحمّل مشاقّ طويلة واستقامة على الخط الطويل أنّه من أجل قلع عروق العادات الخطيرة الضارة وبناء الصفات المطلوبة يجب أن يقترن مع معرفة العيوب إرادة قويّة لا تتزلزل تهدي الإنسان إلى الهدف المطلوب . ونحن كلّما نظمنا أعمالنا تنظمت أفكارنا بها أيضاً واعتدلت واستقامت ، وأنّ لكل خطوة في هذا السبيل أثرها النافع القطعي الذي يتجلى لنا ويظهر بعد انتهاء العمل .

كتب العالم الشهير الدكتور كارل يقول : إنّ أكثر الطرق أثراً في أن يصبح عملنا في الحياة مقبولاً لدى عقولنا أن نسبر غور برنامج العمل اليومي كلّ صباح وأن ندقّق النظر في نتائج الأعمال الحاصلة كل مساء . فكما نتوقع أن نعمل العمل المعين في الساعة المعينة وأن نختمها كذلك وأن نأكل كذا وأن نحصل على كذا ونسمع كذا ونرى فلاناً . . . كذلك يجب أن نتفاءل كيف ننفع الآخرين ، وكيف يجب أن نكون في أعمالنا على اعتدال وتوازن . إنّ الدناءة الخلقية مكروهة كالأوساخ الجسدية تماماً ، فكما يجب علينا أن ننظف أبداننا من أوساخها كذلك يجب علينا أن ننظف أخلاقنا من أرجاسها . وقد اعتاد بعض الناس على أن يتحرّكوا قبل النّوم وبعدة حركات تنشط العضلات ، فلا يقل عن هذه الحركات في الأهميّة أن نصرف دقائق من أعمارنا في تربية أخلاقنا وأفكارنا وأرواحنا ، إننا بالتفكر في الكيفيّة التي يجب أن نتخذها لأعمالنا وبالسعي في الدقّة في عدم التخطي عن تطبيق الخط المرسوم نستطيع أن ننمي عقولنا وإراداتنا . وبهذا الترتيب ينبسط في عمق شعورنا مرآة مختفية يستطيع كلّ واحد منّا أن يرى نفسه وحدها فيها بلا حجاب . إنّ توفيقنا في إجراء مقررات الحياة يرتبط بحياتنا الداخليّة . أنّه يجب على كل إنسان سواء كان فقيراً أو غنيّاً ، شيخاً أو شاباً ، عالماً أو جاهلاً أن يثبت في فكره ما عمله من خير أو شرّ كلّ يوم ، كما ينظم التاجر دفاتر وارداته وصادراته ومصروفاته ، وكما ينظم العالم أوراق تجاربه بدقة متناهية . وبإجراء هذه الطرق التربوية بصبر وتؤدة تتغيّر أرواحنا بل وأجسامنا أيضاً » .

إنّ الشخص الإيجابي البناء لا يهمل طاقاته ومساعيه دون أن يهديها إلى سبيـل يليق بها ، وكلمـا كان ذا شخصيـة كريمـة أثبت للآخـرين أيضاً كـرامة وحقوقاً ، واحترز مجدّاً عمّا ينتهي إلى جرح عواطفهم فإنّه يدرك أن أحسن شيء يعرّفه إلى الآخرين هو سلوكه الذي يبدو منه في معـاشرتـه معهم . سئل أحـد الكبـار ما أصعب الأمـور وما هـو أيسرهـا ، فقال أصعبهـا أن يعـرف الشخص نفسه ، وأيسرها أن ينتقد الآخرين ويعيرهم .

* * *

جماعة العيارين والمستهزئين :

إنّ في طبع بعض الناس شهـوة مشؤومة تبعثهم على أن يتجسسـوا على عـورات الآخرين وزلّاتهم وأسـرارهم ، وعلى أن ينتقـدوهـا ويلومـوهم عليهـا ويسخرون منهم بها ، مع أنّ فيهم عيوباً كثيرة ونقائص تترجّح على ما فيهم من الفضائل كمّـاً وكيفاً ، ولكنهم مـع ذلك يغفلون عن عيـوب أنفسهم ويشتغلون بعيوب الناس ، من دون أن ينظروا في تهذيب أنفسهم منها .

إنّ تعييـر الآخـرين من الصفـات التي تلوّث حيـاة الإنســان وتحطّ من شخصيته الخلقيّة .

إنّ الـدّوافـع التي تبعث الإنسـان على عيب الآخـرين نـوع من (عقـدة الحقارة) و (دناءة الطبع) تتقوى بالغـرور والعجب والكبر والـرضا عن النّفس وتوجب كثيراً من الأخطاء في الحياة ، فإنّ الآثار التي تتولد من هذه العقدة في أخلاق الإنسان تجرّؤه على إصدار الكثير من الأحكام الخاطئة قاطعاً بها .

إن المستهزئين يصرفون أنظارهم وأفكارهم في طريق لا يرضى به العقل ولا الشـرع ، فإنهم يصـرفون هممهم في أن يـراقبـوا أعمـال من يعـرفـونـه من أصدقائهم كي يجدوا فيهم نقطة ضعف فينتقدونهم ويعيرونهم ، وبذلك يقلّلون ما استطاعوا من قدرهم ومنزلتهم ، وهم بصرفهم أفكارهم في هذا الأمر يفقدون الفـرصة الكـافية للنـظر في عيوب أنفسهم ، ولهـذا فهم لا يسيرون في طـريق الهداية والصلاح إنّ الذين يفقدون الشجاعة الكافيـة لا يتقيّدون بـأيّ شيء ولا يلتزمون بحفظ كرامة الآخرين ، فهم لا يستطيعون أن يعيشوا في صفـاء وحتى

مع أقرب الناس إليهم ، فهم كما يذكرون معايب البعداء عند الأصدقاء كذلك حين يـرون الجوّ خـالياً يـذكرون نـواقص أصدقـائهم وأخطائهم وينتقـدونهم . ولذلك لا يستطيع هؤلاء أن يجدوا لأنفسهم أصدقاء واقعيّين يستقرون في كنف عواطفهم ويرتوون من منبع محبتهم وعنايتهم .

إنّ كرامة الإنسان رهينة بما كسبت يداه ، ومن يعتدي على كرامة الآخرين أصبحت كرامته معرضة للضياع .

من الممكن أن لا يلتفت لمعيّب على الآخـرين إلى نتـائـج عمله هـذا القبيح ، ولكنّه سوف لا مكنه أن يحترز عن رد فعل عمله هـذا في المجتمع ، فكم يولد له عمله هذا من الحقد والعداوة والبغضاء ، ما لا يستثمر منه إلا الندم ولات حين مندم فإن الكلام ـ كما قالوا ـ ليس كالطير إذا طار أمكن أن يردّ إلى وكره[1] .

إنّ من يريد أن يعاشر الناس يجب أن يتعرّف على وظائفه وتكاليفه ، ومنها أن ينظر دائماً إلى محاسن الأشخاص وأعمالهم البارة فيقدّرهم ويمجدهم بها . ويجب عليه أن يغيّر من صفاته وعاداته مـا يحطّم كـرامة الآخـرين ويتنافى مـع أصـول المحبّة ، فـإنّ المحبّة لا تـدوم إلا مع المحبّـة والاحترام المتبـادل بين الطرفين . فمن اعتاد على إلقاء الستر على عيوب أحبّائـه وأصدقـائه استقـامت مودته واستحكمت محبّته ، فإذا رأى في أحـدهم نقطة ضعف نبّهـه في فرصـة مناسبة إلى تلك النقطة غير المرغوبة وذكّره بلزوم تغييرها بدل أن يعيّره بهـا في غيابه .

فإنّه يجب على الإنسان إذا أراد أن يذكّر صديقه بنواقصه لغاية إصلاحها ، أن لا يبادر إلى ذلك إلاّ بمهارة خاصة لا تنتهي بتألمه منه على أثر جرح شخصيته أو عواطفه . يقول أحد التربويّين : « أن باستطاعتكم أن تنبهـوا مخاطبكم إلى خطئه بنظرة أو حركة أو صوت دون أن تحتاجوا إلى كلام ، فإنّكم إن قلتم له أنّه يخطىء لم تستطيعوا على أخذ موافقته على ما تعتقدون ، إذ أنّكم ببيان خطئه تكونون قد طعنتم في عقله وتفكيره ، وجرحتم في غروره ورضاه عن نفسه . إنّ

---

(١) مثل فارسي .

عملكم هذا يجعله يقاومكم من دون أن يغيّر من عقيدته شيئاً ، حتى ولو أفرغتم عليه منطق أفلاطون وقوانين أرسطو ، لأنكم قد جرحتموه في أحبّ الأشياء إليه وأعزّها عليه وأكرمها لديه . ولا تبدأوا كلامكم بمثل قول سأثبت عليك ، أو سأستدل عليك . فإنّ مفهوم هذا الكلام أنّكم أذكى منه وأعقل ، وأنّ إصلاح أفكار الناس أمر عسير في كثير من الموارد فضلاً عما إذا زدنا على العلّة بلّة ، وأوجدنا أمامنا سدوداً وحدوداً منيعة . أنّكم إذا أردتم إثبات شيء يجب عليكم أن لا تنبهوا أحداً إلى ذلك ، وتمضوا في هدفكم بمهارة لا يتنبه معها أحد إلى ما تقصدون . اعملوا في هذا بما قال القائل : « علموا الناس بدون أن تكونوا معلمين » .

* * *

نظرة في التعاليم الدينية :

يحذر القرآن الكريم المستهزئين من مصيرهم الأسود ويخوّفهم من مغبّة عملهم السيّء هذا فيقول : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ (الهمزة : ١) .

إنّ الإسلام فرض على المسلمين رعاية أصول الآداب والأخلاق لحفظ وحدتهم ، ومنعهم عن الهمز واللمز من بعضهم لبعض مما يسبب التفرقة وتوتّر العلاقات والروابط الأخويّة بينهم ، فيجب على المسلمين أن يكون كل واحد منهم محافظاً على شؤون الآخرين ومحترزاً عن تحقيرهم وإهانتهم .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : « إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد »(٢) .

وقال والده الإمام الباقر (عليه السلام) : « كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمي عنه من نفسه ، أو يعير بما لا يستطيع تركه ، أو يؤذي خليله بما لا يعنيه »(٣) .

وقال جدهم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إياك ومعاشرة مبتغي

---

(٢) الكافي : ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٣) الكافي : ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

عيوب الناس ، فإنهم لم يسلم مصاحبهم منهم »[٤] .

والإنسان وإن كان طبعه أبيّاً عن قبول النقد والاستماع إلى عيوبه ، لكنّه يجب عليه أن يلتفت إلى النقد الصحيح البنّاء ببالغ السرور ، فإننا في ظلّ هذه الانتقادات وبالإلتفات إلى نواقصنا نستطيع أن نهيّء لأنفسنا موجبات الصلاح والإصلاح وتزكية النفس وتهذيبها إن شاء الله .

ويذكّرنا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا الصدد إذ يقول : « ليكن آثر الناس عندك من أهدى إليك عيبك وأعانك على نفسك »[٥] .

والدكتور دايل كارنيجي يقول في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في الناس) : « إننا يجب علينا أن نستقبل النّقد بطلاقة الوجه ونقبله ، إذ نحن لا نرجو أن يكون أكثر من ثلثي أعمالنا وأفكارنا صحيحاً ، فإنّ (آينشتن) وهو من أعمق المفكرين المعاصرين كان يعترف بأن ٩٩٪ من أفكاره واستنتاجاته كانت خاطئة إنني إن لم أراقب نفسي عندما يبدأ أحد في نقدي أتأهب للدفاع عن نفسي من دون أن أعرف ماذا يريد أن يقول . ولكنّي كلما فعلت هكذا تنفّرت عن نفسي . إننا جميعاً نحبّ التحسين والتمجيد ونكره التقبيح والتنقيد من دون أن نلتفت إلى أن أيّاً من ذلك كان في محله أم لا ! نحن لسنا أبناء الدليل والمنطق بل أبناء الأحاسيس ، وقد أصبحت عقولنا كقوارب شراعيّة صغيرة تتقاذفها أمواج الأحاسيس في بحر عميق مظلم ومتلاطم إلى هنا وهناك . إن أكثرنا يحسن الظنّ بنفسه في حاضره الآن ، ولكنّا سنرجع بعد أربعين سنة مثلاً وننظر إلى ما نحن عليه الآن فنضحك على أنفسنا » .

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « من بحث عن عيوب الناس فليبدأ بنفسه »[٦] .

ويقول الدكتور هلن شاختر : « يا حبذا لو كنّا بدل أن نشكل على قول أو عمل الآخرين كنا ننظر في أدوائهم وآلامهم فإن قدرنا هديناهم ، وإلاّ وجب من هذا أن ننظر في أدواء أنفسنا فنضع عيوبنا ونقائصنا نصب أعيننا فنعالجها إن

---

(٤) غرر الحكم : ص ١٤٨ .

(٥) المصدر: ص ٥٥٨ .

(٦) غرر الحكم : ص ٦٥٩ .

استطعنا »[7] .

إنّ الجاهل بدل أن يبادر إلى رفع معايبه يسعى في إخفائها .

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « كفى بالمرء غباوة أن ينظر من عيوب الناس ولا ينظر إلى ما خفي من عيوبه »[8] .

ويقول الدكتور آويبوري : « أننا لجهلنا كثيراً ما نغضي عن معايبنا ونسترها بستار من الغفلة والتجاهل ، لنخدع أنفسنا بهذه الطريقة أنّه لمن العجب أنّ الناس يسعون في ستر معايبهم عن أعين الناظرين ولا يفكرون في إصلاحها أبداً ، وإذا ظهرت إحدى معايبهم بحيث لا يقدرون على إخفائها خلقوا لأنفسهم ألوف الأعذار ليرضوا أنفسهم ويموهوا على الآخرين ، محاولين أن يقللوا من ثقل عيوبهم في أعين الناس ، غافلين عن أنّ العيب وإن كان خفيفاً فسيثقل بمرور الأيام ، كما أنّ البذرة تكبر حتى تصبح شجرة عظيمة »[9] .

إنّ مطالعة النفس هي الطريقة الوحيدة اليوم عند علماء النفس للوصول إلى أمراضها وعلاجها . وكان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يوصي بعلاج الأمراض النفسية من هذا السبيل فيقول : « على العاقل أن يحصي على نفسه مساوئها في الدين والرأي والأخلاق والأدب ، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب ويعمل في إزالتها »[10] .

وكتب أحد علماء النفس بهذا الصدد يقول : « اجلس وحدك في غرفة هادئة في راحة وفراغ بال ، وأوص الأهل أن لا يزاحمك أحد ، وكلّما كان المكان مطمئناً وكنت مرتاحاً فهو أحسن ، فإنّ ما تقصده يشترط فيه شرط أساسي وهو أن لا يضطرب فكرك بالتوجه إلى أيّ شيء سوى ما تقصد ، وأن لا يتوجه ذهنك إلى حاجاتك الجسديّة .

خذ معك مقداراً من الورق الأسمر الزهيد الثمن وقلماً سريعاً . وإنّما

---

(٧) عن الترجمة الفارسية : رشد شخصيت.
(٨) غرر الحكم : ص ٥٥٩.
(٩) عن الترجمة الفارسية : درجستجوي خوشبختي.
(١٠) غرر الحكم : ص ٤٤٨.

قلت ورقاً أسمر زهيد الثمن حتى لا تمتنع من أن تصرف كمية منه بالكتابة من دون احتياط في مقداره ، وإنّما قلت قلماً سريعاً لأنك الآن في حالة تحوطك آلاف العوامل الروحيّة والنفسية حتى تصرفك عن عملك المطلوب وهي مطالعة نفسك .

أكتب قائمة عن أنواع الإحساسات والآثارات التي وجدتها في نفسك في يومك الحاضر والأمس الدابر .

فإذا كتبت قائمة لأحاسيسك وإثاراتك في يومك أو أمسك ، فارجع إليها مرّة أخرى واحدة فواحدة ، ثمّ فكّر فيها واكتب ما خطر ببالك بمناسبتها من دون أي تقيد أو تحديد ، ولا تبال حتى ولو طال .

وبعد أن كتبت أعمالك وأفكارك وأحاسيسك وإثاراتك في يومك كما مر فاجعل غرائز حبّ النفس ، والانزواء والكبر ، و . . . أمام عينك ، ثمّ احضر في نظرك كل شيء من أعمالك وأفكارك وإحساساتك وإثاراتك واحدة فواحدة ، ثمّ اسئل نفسك على أثر أيّ واحد من هذه الغرائز والميول كان هذا العمل المعيّن مع هذه الأحاسيس الخاصّة ؟ والهدف من هذه المطالعة النفسية هو أن يغيّر المريض من شخصيته الروحيّة ما تستطيع به قواه الروحية الحيّة والإيجابيّة البنّاءة أن تفقده من حالاته العصبية والمضادّات النفسيّة ، فيحسّ في قرارة نفسه بشخصية جديدة . فيجد لنفسه في الحياة أهدافاً ومعاني جديدة ، فيتّخذ لنفسه في الحياة طريقة جديدة غير السابقة »[11] .

---

(١١) عن الفارسية : روانكاوي .

الحسد

★ دوافع منحرفة مخوفة .
★ أن الحسود يحترق بنار الخيبة والحرمان .
★ الدين ينتقد الحسد .

إنّ الإنسان في هذه الحياة المضطربة يعيش في حركة دائبة بين أمواج من المشاكل والمصائب ، يهوّن على نفسه وجسمه المشاقّ والصعاب والشدائد علّه يقتطف من بستانها أزهار الأمل المشرق ، فيجسّدها واحدة فواحدة . فهو ما لم تنقطع صلته بالحياة بمدية الموت وما زال يرى أمامه نافذة من الأمل يسعى دائباً وراء السعادة . والخلاصة أنّ ضياء الأمل هو الذي يهب لصاحبه الحياة ويجعل مرارتها حلاوة له .

فأحدنا يأمل الوصـول إلى الغنى والثروة ويسعى للوصـول إليها سعيـاً لا يعرف الكسل . والآخر يحبّ الشهرة والرئاسة فهو يسعى للوصـول إليها ، وأنّ حوائج الناس ترتبط بحوائجهم الجسديّة ومدى تكاملهم الروحيّ والنفسيّ ، وأنّ الآمال تتفاوت بتفاوت التفكير في كلّ أحد . ولكن يجب الالتفات إلى أنّ هذه الحوائج إنّما توجب لنا السعادة فيما إذا كانت متـلائمة مـع حوائجنـا الروحيّـة ومطمئنة لإعوازنا الفكريّ ، آخذة بمستوى معارفنا إلى الأعلى ، متّقدة كالضياء في دروب الحياة ، منقذة للشخص عن ظلمات الهول ، مخلّصة له عن الشقاء والتعاسة .

وقد طغى إحدى الغـرائز كـالحرص وطلب الـرئاسـة فتؤسس في النفس أساس شقائها ، وأنّ إحدى هذه الغرائز ـ التي تبدو كشهوة منحرفة عن مسيرها

المعتدل فتأسر الوجدان وتمنع الإنسان عن الوصول إلى آماله الواقعية ـ لهو الحسد ، أو إرادة السوء للآخرين . إنّ الحسود لا يستطيع أن يرى أحداً في كنف الرفاهية ، فهو يحسّ في نفسه بثقل وضغط شديدين ناشئين من نظرة المتشائم إلى نعم الآخرين . وكما يقال عن سقراط أنّه كان يقول : « إنّ الحسود يهزل ويضعف من سمن الآخرين » .

إنّ الحسود يصرف أيّام عمره في إذابة نفسه حسرة على ما لم يجده ووجده الآخرون فيتأوّه عليها ويتأسّف لها ، ويتمنّى لسائر الناس الشّقاء والنكبات ، ويحاول التزوير والحيل في سبيل سلب سعادتهم .

يقول أحد كبار الكتاب : « إنّ نفوسنا كمدينة في الصحراء بلا قلعة ولا حصار ، فهي نهب بيد سرّاق السعادة . إنّ بإمكان أقلّ الرياح خطراً أن تجعل بحر أرواحنا متلاطماً مضطرباً ، وإنّ غير واحد من أعداء النفس من الهوى يدخل بيوت نفوسنا فيأمر وينهي حتى أنفاسنا الأخيرة . ويعرف كل جاهل أنّه إذا أحسّ بألم في رأسه فعليه أن يراجع الطّبيب المعالج ، ولكن الذي يصاب بداء الحسد يجب أن يحترق ثمّ لا يجد لنفسه الطبيب المعالج » .

إنّ الحسود يجعل نعمة الآخرين هدفاً فيسعى لإزالتها عنهم بشتّى العناوين والحيل ، وهو في هذا العمل فريسة لإحساسه الدنيء من دون أي التفات أو تحقيق .

فهو أحياناً يكشف عن نفسه الخبيثة بإشاعة التّهم والأكاذيب على المحسودين ، فإذا لم يرتو هواه هذا ورأى أنّ الحياة تعاكس إرادته لا يبعد منه أن يتجاوز حتّى على حرّيّاتهم ، بل وحتّى على أرواحهم فيحطمها في سبيل ميوله غير المحدودة .

نعم إنّ هذا من ميوله . . . ولكن هل أنّ هذا الميل من الميول الواقعيّة للإنسان ؟ وهل أنّه يتفق مع الهدف الواقعي لحياة الإنسان ؟

ليس الحسود خارجاً عن نطاق الإنسانيّة فحسب ، بل هو أذلّ من الحيوانات وأنزل ، فإنّ من لا يفكّر في آلام الآخرين لا يكون من المصاديق الواقعية للإنسان فضلاً عما إذا استبشر بحرمان الآخرين من نعمهم وحسب ذلك

الحرمان انتصاراً لنفسه .

***

الحسود يحترق بنار الخيبة والحرمان :

إنّ من أهمّ عوامل التقدّم والانتصار في ساحة الحياة لهو النفوذ إلى قلوب الآخرين والتأثير فيهم ، فإن من استطاع أن يحكم على القلوب بلياقته وصفاته العالية استفاد في سلوك سبيل التقدم من مساعدة أفراد المجتمع ، وملك بذلك مفاتيح الموفقيّة والنجاح . إنّ أصحاب الخير كالمصابيح في المجتمع يتقدمون بين أيدي الناس فيقودون أفكارهم ويؤثرون في أخلاقهم تأثيراً عميقاً .

ولكنّ الحسد يعلن بوجهه الكريه فناء الصّفات الخيّرة والملكات الفاضلة ، ويحول بين أفراد المجتمع فلا يدع أن يجد الشّخص في قلوب معاشريه موقعاً ذا أهميّة ، ولا أن يرى بعينه كوكب المحبّة يسطع في سماء حياته ، وبالتالي يحرمه الحسد عن التنعم بنعمة التعاون ومزايا المساعدة . ولكن الحسود أيضاً بإظهاره الحسد باللسان أو اليد يعري رجسه ويعلنه للملأ ، فيجرّ بذلك على نفسه أمواج السخط والكراهيّة العامة . وأنّ الإضطراب المحسوس والحزن العميق الذي يجرّه بالحسد على نفسه يضغط روحه ، وهو بذلك يوقد ناراً تتأجّج لإحراق روحه الحبيبة .

وأنّ السبب في احتراق روح الحسود بالقلق والاضطراب النفسيّ شيء واضح ، إذ أنّ النعم الإلهية تتّسع على خلاف ما يتوقّع ، فهو لا يزال لذلك في حزن وألم مخيّم على فؤاده . إن الحسد كالعاصفة الشديدة تهبّ فتقلع شجرة الفضائل من الجذور والأعراق ، بحيث لا يجد الحسود في نفسه أيّ وازع وجدانيّ عن ارتكاب أيّة جريمة مهما كانت .

حينما رأى قابيل أنّ قربان (هابيل) قد قبل بينما لم يتقبّل قربانه حسده حتّى صمّم على قتله وقتله خيانة ، أنشب الحسد مخالبه على قلبه فسلبه عاطفة الأخوّة والإنسانيّة ، فحطم بالصخرة رأس أخيه وخضّب جسده المقدس بدمائه لا لشيء إلاّ لأنّه أخلص في نيّته وكان طاهراً في عمله . . . لقد شهد العالم الهادىء في ذلك العهد أولى ضحايا الحسد على أثر جناية عظيمة مهوّلة وقعت

على يد ولد آدم (عليه السلام) . ولمّا فعل الحسد ما فعل ندم من عمله الشّنيع ولكن لم ينفعه النّدم بل لا زال يتألّم من وخز ضميره ما بقي على قيد الحياة . ولو كان قد تطرّق الفكر الصحيح الواقعيّ إلى خاطره لكان يفتّش عن سبب حرمانه عن الفيوضات الإلهيّة في نفسه ﴿ **إنّما يتقبّل الله من المتّقين** ﴾ .

يقول العالم الألماني شوبنهاور : « إنّ الحسد من أخطر عواطف الإنسان ، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يحسبه ألدّ أعدائه في سبيل سعادته ويسعى في دحضه ودفعه » .

إنّه إذا فشا الحسد بين أفراد المجتمع شاعت فيهم مظاهر كثيرة من المشاجرات المختلفة ، وفي مجتمع كهذا مليء بالآلام والمحن يصبح كل واحد منهم ـ بدل أن يكون مكمّلاً لنقائص الآخرين ومساهماً في تحسين أوضاعهم ـ سداً أمام سعادتهم وتقدمهم في الحياة ، وأنّ حسد هؤلاء سيمنع من أيّ إصلاح بينهم ، وبالتالي ينفرط روح النظام والراحة والطمأنينة وينتهي الأمر بهم إلى الفناء والدمار على ما هم فيه من الحضارة والعمران . كما قال الدكتور كارل : « إنّ المسؤول عن بخلنا وعقمنا هو الحسد فينا ، فإنّه هو الذي يمنع من وصول آثار تقدم الأمم المتقدمة إلى دول العالم الثالث ، وبه أيضاً يمنع من وصول كثير من ذوي القابليّات إلى قيادة أممهم » .

إنّ أكثر الجرائم التي تقع اليوم في زوايا هذا المجتمع مصحوبة بأنواع من الشدة والقسوة إنّما ينبع من الحسد ، ويظهر ذلك بالتعمّق في الحوادث .

* * *

الذين ينتقد الحسد :

قال سبحانه في قرآنه الكريم : ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** ﴾[1] .

إنّ الإنسان ـ وإن كان مجبولاً على حبّ الذات وجلب النفع إليها ـ يجب عليه أن لا يعمل وفق غريزته هذه إلاّ في حدود القوانين الشرعيّة ، ومنطق العقل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

السليم ، ومصالح المجتمع .

وعلى هذا فإذا أنعم الله على أحد بنعمة فليس لأحد أن يتجاوز عليه فيسلب منه تلك النعمة ، ليسكن بذلك حسده أو بدافع جلب المنفعة ، بل يجب عليه أن يسلك إلى آماله طريقاً صحيحاً ومعقولاً في الحياة ، فإنّه يجب علينا أن نسعى في سبيل آمالنا كما أرشدنا الله إذ قال : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[٢] وأن نطلب من فضله الخالد والدائم أن يسهل علينا كل عسير ويقربنا إلى آمالنا وأهدافنا في الحياة . ولو أنّ الحسود الذي يصرف فكره وأحاسيسه التي يصرفها في غير محلها عبثاً ، كان يصرفها في سبيل أهدافه وآماله متوكلاً على الفيض الإلهي واطئاً برجله نواصي الهمم لكانت شمس السعادة تشرق في بيته حتماً .

وقد وردتنا روايات كثيرة عن أئمة الهدى (عليهم السلام) تحذرنا من مغبّة هذه الصفة المشؤومة وتجنبنا من لوثها وعواقبها الخطيرة ، يكفينا أن نتوجّه الآن إلى قسم من ذلك مما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) .

في هذه الرواية أشار الإمام الصادق (عليه السلام) إلى نقطة نفسية ، فقال :

« الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى ، وهما جناحان للكفر وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً » .

إنّ من عوامل نشوء الحسد سوء التربية في البيت ، فإنّ الأبوين إذا أحبّا أحد أولادهما أكثر من غيره وخصّصاه بعطفهما وحنانهما وحرما الآخرين من عواطفهما أوجدا فيهم عقدة الحقارة والتمرّد ، وأنّ حسد كثير من الناس إنّما يكون ناشئاً من هنا باعثاً لهم على الشقاء والتعاسة . وهكذا يكون الأمر فيما إذا كانت أسس الحكم في المجتمع مبنيّة على غير العدل والانصاف ، بل على الظلم والتعسف والتّمييز العنصريّ والطائفيّ والقوميّ وغيره ، فكان الظلم هو الحاكم في جميع شؤون المجتمع ، اتصف روح ذلك المجتمع بحالة من

---

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٩.

الطغيان والتمـرد ، وتأججت في صـدورهم نيران الحقـد والحسد . وقـد منع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين عن الانحراف عن العدل بين الأولاد كي يمنـع من تلوثهم بآثـام الحسد فـالـرذائـل الأخـرى . « سـاووا بين أولادكم في العطية »[٣] .

وقد نقل البروفيسور برتراندراسل عن كتاب (عائلة فير جايلد) مقطعاً من الفصل الذي عقده لبيان طرق الاجتناب عن الذنوب القلبية الخفيّة ، قال فيه : « أعطى إلى (لوسي) دفتراً صغيراً كي تكتب فيه ما يستقرّ في قلبها من الأفكار الفاسدة . وعند تناول طعام الفطور في الصباح أعطى أبـواها كـوباً إلى أخيهـا وشريطاً لمسجـل الصوت إلى أختهـا ولم يعطيـاها هي أيّ شيء ، فكتبت في دفترها أنّه خطر ببالها في تلك اللحظة فكر سيّء وهو أنّ أبويها لا يحبّانها إلاّ أقلّ من أخويها . . . » .

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أضرار الحسد الجسدية فقال :

« عجبت لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد »[٤] .

ويقـول الدكتـور فرانـك هورك : « ادفعـوا عن نفـوسكم وأفكـاركم آلام الأحـاسيس النفسيّة ، فـإنها أبـالسة النفس لا تكتفي بتحـطيم نظام الفكـر في الإنسان بل تنمّي في جسـده الخلايـا المسمومـة أيضاً ، وهي بـالتالي تـوجب للجسم أضراراً بالغة . أنّها توجب بطئاً في الدورة الدموية ، وتضعف أعصابـه وتحطم نشاطه الجسدي والـروحي وتفقده الأمـل والهدف في الحيـاة ، وتهبط بمستوى تفكيره إلى الأسفل . إنّه يجب على الإنسان أن يطرد هذه الأعداء من بيئة حياته ، فإنها قاتلة له ، ولذلك فيجب أن تسجن بعيدة عن حياة الإنسان ، ومن فعل ذلك سوف يرى أنّ إرادته تقوى وأنّه سينتصر بقوة إرادته على جميـع مشاكل الحياة »[٥] .

---

(٣) نهج الفصاحة : ص ٣٦٦ .
(٤) غرر الحكم : ص ٤٩٤ .
(٥) عن الفارسية : پيروزي فكر.

وقال علي (عليه السلام) : : « الحسد يفني الجسد »[٦] .

وقال (عليه السلام) في موضع آخر وهو يشير إلى أضـراره في النفس : « احذروا من الحسد فإنه يزري بالنفس »[٧] .

ويقـول أحد علمـاء النفس : « إنّ الحسد الشـديـد لمن الآلام النفسيّـة الشديدة التي توجب للنفس ألماً كثيراً ، وأخطاء فاحشة ، وظلمـاً وتعسفاً ليس بالقليل . وليعلم أن كثيراً من أعمال الحسود لا يصدر عن إرادته هو ، بـل أنّه يصدر بأوامر من عفريت الحسد »[٨] .

إنّنا يجب علينا أن لا ندع الآمال الـدنيئة والشهـوات السافلة التي تبـدل حلاوة العيش إلى مرارة الحنظل ، توجد أمام تكاملنا سداً مانعاً ، بل يجب علينا أن نوجه أفكارنا إلى الأهـداف الساميـة ، ونأمـل الاتصاف بـالصفات والمـزايا الإنسانية العالية . فإن الآمال اللائقة في سبيل توجه الأفكار الوجهة الصحيحـة ستبلغ بـالإنسـان يـومـاً مـا إلى أهـدافـه الخيّـرة الحميـدة . قـال الإمـام أميـر المؤمنين (عليه السلام) : « تنافسوا في الأخلاق الرغيبـة ، والأحلام العـظيمة والأخطار الجليلة ، يعظم لكم الجزاء »[٩] .

ويقول الدكتور ماردن : « إنكم إن ركّزتم أفكاركم على تحصيل أوصاف خاصّة فإنكم ستصلون إليها في النهاية ، فإن المكونـات الطبيعيـة وليدة أفكـار طبيعيـة . فإن كنتم على أمـل العيش بوداعـة وفكاهـة وأمن فـإنّكم ستعيشـون كذلك . فإن كنتم أصحاب مناظر قاتمة تنظرون إلى كلّ شيء وكأنّه معتم مظلم استطعتم أن تنجو من هذا الضعف في مدة قصيرة ، بأن تـوجهوا أفكـاركم إلى عكس هذه النقطة القاتمة ، أي تفكـروا في موجبـات النشاط والفـرح والسرور الموجودة في الحياة . وإن كنتم تأملون الاتصاف بالخصائص الأخلاقيّة الجيّدة فاقصدوها بثبات وعناد ، فإنّكم بعنادكم في سبيل طلبها تهيّئون أذهانكم لقبول

---

(٦) غرر الحكم : ص ٣٢.

(٧) المصدر : ص ١٤١ .

(٨) عن الفارسية : روانكاوي .

(٩) غرر الحكم : ص ٣٥٥.

تلك الخصائص الحسنة ، وبذلك تستطيعون الوصول إليها . ولا تبالوا أن تكروا العزم على الأمل والهدف الطيب ، بل ارسموها على جباهكم وجنوبكم واعلنوا لكل أحد أنكم تريدون الوصول إلى هذه الآمال وسترون بعد مدة قليلة كيف أنّ أفكاركم تجركم إلى أهدافكم كمجاذبة المغناطيس »[١٠] .

ويقول الدكتور مان في (أصـول علم النفس) : « لقد جـربنا ورأينـا في بعض الموارد أنّ الفكر في عمل ما يوجب أن يتحقّق ذلك العمل حتّى قبل أوانه بصورة خفيفة فمثلاً إذا فكرنا في قبض يدينا تقلصت بعض عضلات اليدين شيئاً قليـلاً وتهيّأ العصب للقبض مقـداراً يمكن أن يقدر بـالآلـة الحـاسبـة الـدقيقـة دوكالوانومتر . وهناك بعض الناس الذين يستطيعون أن يجعلوا الشعر يقف على جلودهم حسب إرادتهم ، وأن يقلصوا بعض عروق اليدين بأن يركزوا أفكارهم على تصوراتهم قد جعلوا أيديهم في الماء البارد المثلج والذين يقدرون على أن يصغروا إنسان عيونهم أو يكبّروها يركزون أفكارهم على تصور تصغيره أو تكبيره ويلقنون أنفسهم بذلك »[١١] .

إنّ لفهم الحقائق تأثيراً مساعداً في أفكارنا وإراداتنا وأميالنا ، وأنّ حجاب الشهوة هو الذي يحجب أبصار بصائرنا فيغشّي على أفكارنا ويوجد الخلل فيها ، فينبغي للإنسان أن يصقل مرآة عقله بالتقوى حتى يقدر على أن يرى فيها الواقع والحقائق ، ثمّ يمحو عن لوح قلبه آثار الحسد وإرادة السوء بالآخرين والشهوات الفاسدة وأن يقطع عن نفسه وروحه سلاسل الحقد والبغضاء التي تضغط على الروح ، كي يتخلص الروح عما به من الآلام والأسقام ثمّ يعوض روحـه عنها بإرادة الخير للآخرين بحكم الإنسانيّة .

---

(١٠) عن الفارسية: پیروزي فكر.

(١١) عن الترجمة الفارسية: أصول روانشناسي مان.

الكبر

★ نور المحبة في آفاق الحياة .
★ الكبر يولد التذمر لدى الناس .
★ من دروس قادة الدين في التواضع .

إنّ المحبّة هي التي تنوّر آفاق الحياة دائماً ، إن للمحبّة آثاراً عميقة وسيعة المـدى في تقدّم الإنسـان الماديّ والمعنـويّ ، ولها في ذلـك القدرة العـظيمة والعجيبة . وقد جبلت هذه القوة القاهرة في الضّميـر الإنسانيّ بـالفطرة الأولى وهي تنمو حتى تنتهي أحياناً إلى مثل بحر لا ينزف .

ونحن إن أطفأنا نور المحبّة عن أفق الحياة حاصر ظلام الخيبـة ووحشة الوحدة والغربة روح الإنسان ، وأصبح وجه الحياة عبوساً مقـطّباً مـوجباً للملل والسأم منها .

إنّ الإنسان خلق إجتماعياً وجعل الإجتماع مع الآخـرين من ضروريـات وجـوده ، والذي ينفـره عن المجتمع ويبعثـه على الأنس بالـوحدة والحـذر من الاختلاط إنّما هو الخلل الفكري في الإنسـان ، فالـذين يفرّون عن المجتمـع ويأنسون بالوحدة إنّما هم مصابون بنقص في الفكر والوجود . إذ من الواضـح الواقع أنّ الإنسان بوحده لا يصل إلى سعادته . فكما أنّ الحاجـات الجسديّـة كثيرة تبعثه على السعي في قضائها ، كذلك الروح له حـاجات يجب عليـه أن يقضيها . إنّ النفس تتعطش للمحبّة ، وما زال الإنسان يسعى وراء قضاء هـذه الحاجة النفسيّة . إنّ الإنسان في أمسّ الحاجة إلى المحبّة والوداد من أوّل يوم يقدم على هذه الحياة الدنيا ويبدأ وجوده إلى آخر دقيقة تغلق عليه فيهـا أبواب

الحياة ، وأنّه ليحس في نفسه وضميره بآثار المحبّة مصورة تماماً . أنّه حينما تثقل أعباء الحياة كاهله وتؤلم الحوادث روحه وتكاد المصائب تقطع حبائل آماله ، يتعطش إلى المحبّة والوداد عطشاً عظيماً ، وهذا العطش هو الذي ينور قلبه بأمل اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة ، أنّه حينئذ لا يضمن لنفسه السكون ولضميره الراحة إلاّ في ظلال المحبّة . وحقّاً إن كان هناك بلسم للآلام والمصائب والشدائد فليس هو إلا المحبّة .

إنّ حبّ الإنسان لأخيه الإنسان من أجلى عواطف الإنسان ، بل نستطيع أن نعدّه أصلاً لسائر الفضائل الأخلاقيّة ومنبعاً لألطافها . وأن الحب قابل للانتقال والشمول ، وأن خير الطرق إلى شمول حبّهم لنا لهو أن نحبّهم ونقدم لهم عواطفنا الطيّبة بكل سخاء ، وأن نعتقد أن وظيفتنا بالنسبة إلى أبناء نوعنا ليس إلا أن نؤدي وظائف المحبّة والوداد . إن بذل الود للآخرين لهو خير تجارة رابحة ، فإنّه لو بذل الإنسان بكرامته للآخرين شيئاً من هذه الجوهرة الثمينة التي تكمن في قلبه ، لتلقّي منهم من ذلك أضعافاً مضاعفة ، إن مقاليد قلوب الناس بيد الإنسان نفسه ، فالذي يريد الطريق إلى خزائن هذه الجواهر الثمينة يجب عليه أن يملأ قلبه من نور الصّفاء والخلوص ، وينزهه من الصّفات غير المحمودة ، ثم يهبه لكل من يتلقّاه بحسن القبول .

يقول الفلاسفة : « أن كمال كل شيء في ظهور خواصّه وآثاره ، وخاصّة الإنسان الأنس والمحبّة » .

إن المحبّة والعلاقة الروحيّة التي تنشأ بين بني آدم لهي أساس التعاون والتعايش السلمي المستقر .

يقول الدكتور كارل في كتابه (طريقة الحياة) : « أنّه من أجل أن يصل المجتمع إلى السعادة يجب أن يكون أفراده مترابطين كلبنات بناء واحد ، ولكن ليس هناك أيّة مادة بنائية يمكن أن تربطهم هكذا إلاّ مادة المحبّة التي نراها بين أفراد عائلة واحدة ، حينما تنبسط فتشمل جميع العائلة الإنسانيّة . وأن لأصل حبّ الإنسان للآخرين فرعين : فرعاً يوصي الإنسان بحبّ الآخرين ، وفرعاً آخر يوصيه بأن يحبّب نفسه إليهم بأن يجعلها في مستوى حبهم . وما لم يسع كل شخص في سبيل ترك العادات الذميمة لا تتحقق المحبة المتبادلة ، إننا لا

نستطيع الوصول إلى هـذا الهدف إلّا بـالتحرر عن المفـاسد التي تحجبنـا عن الآخرين عن طريق ثورة نفسية ، وحينئذ يمكننا أن نـرى الجار ينـظر إلى جاره بالإكرام ، والعامل إلى صاحب العمل وصاحب العمل إلى عامله بالمحبة . إن المحبـة هي التي تستطيـع أن تعمل في المجتمـع الإنساني مـا عملته الغـرائز الخاصة في مجتمع النمل والنحل طوال ملايين السنين !» .

***

الكبر يولد التذمر لدى الناس :

إن غريزة (حب الذات) من الغرائز الأساسية في طبيعة الإنسان ، وهي غريزة ضرورية له لاستمرار حياته ، فإن علاقته بالوجود وسيعة في حياته وبقائه إنما ينبع من هذه الغريزة . وهذا المنبع الطبيعي وإن كان قوة مثمـرة يمكن أن ينمى بها كثير من الصفات الحميدة في وجـود الإنسان ، لكنهـا إن أفرط فيهـا أصبحت منشأ لكثير من السيّئات والانحرافات الأخلاقية المختلفة .

إن أول الأخطار على الأخلاق هو الإفراط في حب الذات ، فإنه قد يصل بصاحبه إلى أن لا يدع له في قلبه مجالاً لحب الآخرين . وأن هذا الإفراط هو الذي يمنع صاحبه عن الإعتراف بأخطائه ، أو عن قبول الحقائق التي تتنافى مع غروره العاطفي . يقول البروفيسور روبينسون : « أننا كثيراً ما يتفق لنا أن نبدل كثيراً من أفكارنا أو أعمالنا من دون أي قلق أو اضطراب ، ولكننا إذا أطلعنا أحد على خطأ أو زلة وجدنا في أنفسنا ثورة توقفنا أمام هذه النسبة موقف الدفاع أننا نتقبل العقائد بكل سهولة ولكننا إذا أراد أحد أن يسلبنا عقيدتنا وقفنا أمامه موقف المدافع المتهور ، بينما لا نجد علاقتنا بأصل عقائدنا بهذه المتانة والقوة ولكننا نرى عواطفنا وأحاسيسنا إذ ذاك في خطر عظيم لو قيل لنا أن ساعتك تتأخر ، أو أن سيارتك قديمة الطراز ، نتألم تألماً لا نتألم بمثله فيما لو قيل لنا أن معلوماتك عن جداول المريخ ، أو نوعية حضارة الفراعنة في مصر خاطئة » .

إن أكبر آفات السعادة وأشقى أعداء البشر هو الكبـر ورضا الإنســان عن نفسه . ولا تصل كـراهية النـاس من سائـر الرذائـل الخلقية إلى مـا تصل إليـه كراهيتهم من التكبر . إن الكبر من الصفات التي تقطع حبائل الإلفة والأنس بين الإنسان وأخيه الإنسان ، بل يبدلهما إلى العداء ، ويفتح على صاحبه بـاباً من

الانزجار العام . كما يتوقع الإنسان من الآخرين المحبة والإكرام كـذلك وعلى نفس المستوى والمدى يجب أن يكـون هو سـاعيـاً في حفظ شؤون الآخـرين وكراماتهم ومحترزاً عن كل ما يخالف حسن المعاشرة وقطع حبائل الوداد . إن إهمال عواطف الآخرين يولـد عملاً معـاكساً منهم ، فـإنه هـو يقع منهم مـوقع الإهانة والاستخفاف .

إن المجتمع هو الذي يحفظ لكل أحد حقوقه وحدوده ، فكل أحد يـرى منهم من الإكرام والمحبة بمقدار لياقته ومؤهلاته . أما الذي قصر نظره على حب نفسه فإنما ينظر إلى ما يريد ثم لا يبالي بحقـوق الآخرين وشؤونهم وأحـوالهم أبداً ، فهو يحاول بعناد وإصرار شديـدين أن يجعل نفسـه في معرض الجـلال والشهرة ، وأن يحمل كبره الموهوم على رقاب الناس . وأن هذا الإصرار على توقع الإحترام له من الناس في غير محله يسبب ظهور مضادة شديدة بين ما يريد وبين ما يعامله به الناس خليطاً بالتنفر والانزجار العميقين . وإن رد الفعل هـذا من المجتمع على المتكبر سيؤلمه ، وسيتحمله هو بكل قلق واضطراب .

وإنّ من آثار الكبر سوء الظن والتشاؤم ، فإنّ المتكبر تستعر في نفسه شعل نيران التشاؤم وسوء الظن فيظن الجميع أعداء يريدون به السوء . ثمّ هو لا ينسى ما يتوالى عليه منهم من الإهمال والإزدراء والتّحقير ، فهو يتأثّر من كل ذلك من حيث يشعر أو لا يشعر ، فيبعثه ذلك كل حين على الحقد والانتقام من مجتمعه في أيّ فرصة مؤاتية ، ولا ترتاح روحه حتى ينتقم فيخمد بذلك ثورته النفسيّة .

وأنّ شيطان الكِبر لا يتطرّق إلى ضمير الإنسان إلاّ حينما يصاب الإنسان بمرض (الإحساس بـالحقارة) ، وهـذا الإحساس هـو الذي ينتهي إلى إيجـاد (عقدة الحقارة) في المريض ، وهي عقدة مؤلمة مدمـرة من الممكن أن ينبع عنهـا أخطار كثيـرة وجرائم مختلفـة ، وهي التي تجرّ المتكبـر إلى المزيـد من الشقاء . ويتضح لنـا من مطالعـة تاريخ العالم أنّ المتكبـرين هم الذين كـانوا يخالفون نهضة الأنبياء والـرسل ويمتنعـون ويمنعون عن قبـول حقائقهم . وأنّ المجازر العامّة والوحشية التي تحقّقت في الحروب الدمويّة العالمية والتي كادت أن تجرّ البشريّة إلى جهنّم الفناء والدّمار إنّما كانت نابعة من كبر وغرور عدد من القادة قساة القلوب .

وأنّ كثيراً من المتكبّرين إنّما هم أولئك الشذّاذ الذين تربّوا في عائلة متسافلة ثمّ تسلّلوا إلى مقام مّا في المجتمع ، وهم بذلك يريدون أن يجبروا ما هو فيهم من النقص العائليّ ، فهم يتصوررون لأنفسهم شخصيّة أسمى من شخصيات سائر الناس ، ويريدون أن يعلنوا عن شرفهم هذا الموهوم عن طريق الكبر والغرور . وأنّ باستطاعة القرّاء الكرام أن يروا هذا القبيل من الناس حولهم أينما كانوا . إنّ الرجل البارز ذا الحرمة الواقعيّة لا يحسّ في نفسه بالحاجة إلى أن يحمل كبره ونخوته على الآخرين ، إذ هو يعلم أنّ الكبر ليس مما يعطي صاحبه جلالاً واقعياً ، وأنّ الغرور والنخوة لن تولّدا لأصحابهما شخصيّة حقيقية ، ولن ترفعا أحداً إلى أي عظمة يرفع بها الرأس عند الناس باستحقاق .

يقول أحد علماء النفس : « أقصروا الآمال والأمنيات ، وقلّلوا التوقّعات والانتظارات ، وتحرّروا عن الميول والشهوات ، وابتعدوا عن الكبر والغرور ودعوا التقيدات الخياليّة . حتى تضمنوا بذلك لأنفسكم سلامة أكثر وصحة أبقى » .

***

قادة الدين يعطوننا دروساً في التواضع :

إنّ إحدى الفضائل الأخلاقية التي يمكن أن نعدّها رمز المحبّة وأحسن الطرق لها في المجتمع هو (التواضع) ، فإنّ المتواضع بعمله بوظيفته الأخلاقية يرفع من قيمته في مجتمعه إلى حدّ الشّرف الرفيع ، وبذلك يبسط نفوذ حبّه في قلوب الناس . ويجب أن نلتفت إلى أنّ بين التواضع والتذلّل فرقاً فاحشاً وبوناً بعيداً وشاسعاً ، إذ أنّ التواضع عبارة عن فضيلة أخلاقية لشخصيّة عظيمة ونفس مطمئنة . بينما التذلّل إنّما ينشأ من الإنحطاط الخلقيّ وفقدان الشخصيّة .

كان لقمان الحكيم ـ كما يحكي القرآن الكريم ـ يحذّر ولده من الكبر في مواعظه إليه إذ يقول : ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً** ﴾ (لقمان : ١٨) . ﴿ **إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾ .

وكان أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) يقول : « فلو رخص الله في

الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه ، ولكنه ـ سبحانه ـ كره اليهم التكابر ، ورضي لهم التواضع ، فألصقوا بالأرض خدودهم ، وعفروا في التراب وجوههم ، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين » .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل يقول : « اجتنبوا الكبر ، فإن العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله تعالى اكتبوا عبدي هذا في الجبارين »[1] .

وقد بيّن الإمام الصادق (عليه السلام) المنشأ النفسي للتكبر في عبارة قصيرة واضحة إذ قال : « ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه »[2] .

ويقول الدكتور مك برايد : « إنَّ تكبر أي شخص على آخر أو أية أمة على أخرى إنما يعني احتقار الشخص الآخر أو الأمة الأخرى . وإنّ أكثر الخصومات والمنازعات اليوم لهي ناشئة من عقدة الحقارة ، وأنّ اتخاذ فكرة التكبر أو التخاصم لهو نوع من محاولة سدّ الفراغ الذي يحسه المتكبر في باطنه من عقدة الحقارة ، وإلا فلا يتصور أي إنسان شريف طاهر الضمير أو أية أمة أو طبقة أو عنصر أو قوم أو دم أية ميزة أو أي اختلاف بينهم وبين الآخرين »[3] .

إن المتكبرين والمعجبين بأنفسهم ينظرون إلى جميع أعمالهم وأفعالهم وأقوالهم بعين الرضا وبكل جمال وجلال ، بل حتى أنهم يرون نقائصهم بصورة فضائل بارزة وقال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) : « العجب درجات منها : أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيحبه ويحسب أنه يحسن صنعاً »[4] .

ويقول أحد علماء النفس : « أن المتكبر يرى نقائصه فضائل ، ومعايبه محاسن ، فهو يحسب غضبه السريع على من تحت يده دليلًا على شخصيته الفذة ، وضعفه وهزاله دليلًا على حساسته العالية بعلو روحه ، وسمنه وبدانته

---

(١) نهج الفصاحة : ص ١٢ .
(٢) الكافي : ج ٣ ، ص ٤٦١ .
(٣) عن الترجمة الفارسية : عقدة حقارات .
(٤) وسائل الشيعة : ج ١ ، ص ٧٤ .

علامة السلامة والعقل السليم في الجسم السليم ، أما الضعفاء فهم حمقاء لا يعتمد عليهم لأنهم يغضبون بسرعة ولا يستطيع الإنسان أن يقدر ردود فعلهم . وهكذا[٥] .

ولنلتفت الآن إلى قسم قليل من كلمات مولى المتقين علي بن أبي طالب (عليه السلام) :

« إياك أن ترضى عن نفسك فيكثر الساخط عليك »[٦] ويقول (عليه السلام) :

« العجب يفسد العقل »[٧] ويقول علماء النفس أن المتكبر مصاب بنوع من ضعف العقل .

« من ضعفت فكرته قويت عزته »[٨] وقال (عليه السلام) :

« التواضع رأس العقل والتكبر رأس الجهل »[٩] وقال (عليه السلام) :

« العجب داء دفين »[١٠] وقال (عليه السلام) : « من أعجب بحسن حالته قصر عن حسن حليته »[١١] .

ويقول الدكتور هلن شاختر : « أن من وسائل جلب أنظار الناس إلى أنفسنا ـ ونحن في نهاية الخيبة وفقدان الموفقية ـ هو أن نزكي أنفسنا ونمجدها بكل صلافة ، ونتصور الأعمال التي كنا نأمل وقوعها والتوفيقات التي كنا نتمناها كائنة متحققة ونحاول أن ننسبها إلى أنفسنا ، أو نقنع من نفوسنا عوضاً عن التوفيقات التي لم نحصل عليها والأعمال المهمة التي لم نفعلها بأن نتحدث كثيراً عن تلك الأعمال التي قمنا بها ، وأن نكبرها في أنظار الناس مهما كانت

---

(٥) عن الفارسية : روانكاوي .
(٦) غرر الحكم : ص ١٤٧ .
(٧) المصدر : ص ٢٦ .
(٨) المصدر : ص ٦٥١ .
(٩) المصدر : ص ١٠٢ .
(١٠) المصدر : ص ٤٧٨ .
(١١) المصدر : ص ٦٧٨ .

صغيرة حقيرة . وأن هؤلاء سيغترون بزخرف تشدقاتهم الجوفاء ويرضون بل يفرحون بما ينطقون به من الكذب والتمويه بحيث يفقدون بذلك جميع الفرص والتوفيقات المواتية لمحاولة التغيير »[١٢]

إن المتكبّر لا يستطيع أن يدرك ما في نفسه من نقص وما في الآخرين من تفوق وكمال .

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الراضي عن نفسه مستور عنه عيبه ، ولو عرف فضل غيره كفاه ما به من النقص والخسران »[١٣] .

إن الإسلام الهادي إلى الحضارة الإنسانية العالية والداعي للإنسان إلى ما يحييه حياة طيبة ، أبطل كل ميزة غير عادلة ، ولم يعترف إلّا بميزة الطهارة والتقوى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** . . . ﴾[١٤] .

وقال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يندّد بالأغنياء : « استعيذوا بالله من سكر الغنى فإن له سكرة بعيدة الإفاقة . . . »[١٥] .

دخل أحد الأغنياء على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم دخل عليه رجل آخر فقير فجلس إلى ذلك الغني ، فلما رأى الغني ذلك جمع ثيابه وانقبض منه فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أخشيت أن يعدو إليك فقره »[١٦] .

وعلى هذا ، فإن كان المتكبر يحب السعادة وجب عليه أن يقوم بإصلاح ذاته من هذا المرض ، فيخرج عن وجوده هذه الصفة الذميمة التي تخل بشخصيته الواقعية ، فإنه إن لم يهتم بتحطيمها ودفعها عن ذاته انتهت به إلى محنة الخيبة والحرمان .

---

(١٢) عن الفارسية : رشد شخصيت .
(١٣) غرر الحكم : ص ٩٥ .
(١٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .
(١٥) غرر الحكم : ص ١٣٨ .
(١٦) مجموعة ورام : ج ١ ، ص ٢١٤ .

الظلم

★ دور العدالة في المجتمع .
★ نيران الظلم المحرقة .
★ دور الدين في مكافحة الظلم والظالمين .

تدلّنا ملاحظة التواريخ والتحقيق في قيام الثورات على نقطة مهمة جديرة بالملاحظة والتأمّل ، وهي أن كلمة (العدل) المقدسة كانت ولا زالت محور الثورات والنّهضات في مختلف أدوار العالم وبين جميع الأمم والشعوب فكم أثارت رؤى هذه الكلمة المقدسة في أرواح أولئك الذين ملأوا الحياة من ضغط الإجحاف والتّجاوز على الحقوق والإعراض عن أحاسيسهم ، فثاروا على أجهزة الشّياطين ثورة عارمة عامّة ، وسعوا في سبيل الحصول على هذه الجوهرة الكريمة والثمينة والإطاحة بدور أولئك الوحوش الظّالمين ، مساعي لا تعرف الكلل والملل ، ولم يبخلوا في سبيل ذلك حتّى بأرواحهم .

ومع الأسف إن أكثر تلك النّهضات والمكافحات الممتدّة لم تصل إلى نتائجها المطلوبة والظّفر المطلق ولم يبلغ أصحابها إلى آمالهم ولم ترتفع بذلك آلامهم .

وبالالتفات إلى نقطة مهمّة يتّضح لنا سرّ عدم انتصارهم ، وهي أن المجتمع الذي ينحرف مزاجه عن مداره الطبيعي ويعتاد على السقوط والانحطاط ، سوف لن يقبل العدالة نظاماً حاكماً ، ولن يتّصف بنظام العدل أبداً . إن بسط العدالة لا يتيسّر إلاّ في أرضيّة مساعدة من حيث الشرائط ، وما لم تتحقق تلك الشرائط لا يمكن أن تتجلّى صورة العدالة متحقّقة في آفاق

الحياة .

إن المجتمع يحتاج - في أولى حاجاته الأساسيّة - إلى قانون مبني على أسس العدل ، مراعى فيه جميع حقوق الطّبقات والأفراد بصورة كاملة مطابقة للمصالح العامّة . تواكبها تربية أساسيّة على الأخلاق الحميدة تمهّد الأرضية لتطبيق ذلك القانون وتنفيذه فيهم .

إن العدل قانون طبيعيّ نشاهده في جميع عالم التّكوين ، فقد قدّر الله تعالى الخطوط العريضة لسير العالم كلّه على أساس العدل بحيث لا يمكنه أن يتخلف عن هذا القانون الطبيعي العام . إن التّوازن والتعاون العجيب بين أعضائنا الذي نحس به حاكماً في أجسامنا لهو أجلى مظاهر العدل الدقيق المدهش الملاحظ في جميع المخلوقات في هذا العالم العظيم ، ومن ملاحظة أنفسنا نقف بالتالي على نظام جميع العالم .

إن التعادل المدعى في نظام الخلقة الكونيّة توازن قهري لا إرادي أمّا البشر فبما أنّه مستقلّ في الفكر والإرادة يجب عليه أن يؤسس أسس العدل في مجتمعه بإرادته واختياره ، وأن القوّة العاقلة في الإنسان كما أنّهاتحتاج في بعض الموارد إلى الهداية التشريعية كذلك قد تستغني عنها وذلك حيث تستطيع أن تدرك كثيراً من الحقائق بنفسها وتقضي وتحكم بها أو لها أو عليها ، وأن العقل يقدّر الأعمال الحسنة ويشجب الأعمال غير المحمودة .

إن للعدالة في حياة البشر موقعاً حساساً إذ هي من تلك الأوصاف التي تكون منبعاً لسائر الفضائل والصّفات الحسنة ، فهي - بكلمة - حالة تبعث الانسان على الأعمال الصالحة الحميدة ، أنّ العدالة من أكبر العوامل التي تربط بين المجتمعات البشرية وتوجد بينها التآلف والعلاقات الودية الحسنة ، بل توجب اتّحاد المجتمعات على سبل الصلاح .

يقول الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون : « إذا وجدت العدالة في نفس الإنسان سطعت منها أشعّة نيّرة على سائر قواه النفسية ، فإن جميع الصفات الحميدة والفضائل الإنسانيّة إنّما تنبع من عين العدالة ، وهي التي تهب الشخص قدرة على أعماله الخاصّة به على أحسن الوجوه . وهذا هو منتهى

سعادة الإنسان وغاية قربه من الخالق المتعال » .

ولو حسبنا العدالة أول أسس الحياة الاجتماعيّة المنظّمة لم نجازف في القول ، فبها يفتتح الانسان فصلاً جديداً في حياته وبها يجد المجتمع في جسمه روحاً جديداً ، وهي التي تنوّر محيط حياة الانسان وتهب لها جلالاً وجمالاً . إن المجتمع الذي تحظى حياته بنضارة العدالة يجد بها لنفسه مقومات الحياة ، وينتصر بها على المشكلات .

* * *

نيران الظلم المحرقة :

إن أثر الظلم في إبادة المجتمعات وتحطيم الأخلاق والإخلال بالأمن الاجتماعي من القطعيّة بمكان لا يقبل الانكار ، بحيث لا يجد حتى غير المتديّن مساغاً عن الاعتراف بهذه الحقيقة . إن انتشار الظلم يؤدي إلى تحطيم الرّوابط العامة والتّشتت في نظام المجتمع . إن العمل بالقوى الشيطانيّة الجائرة يطوي صحائف الحكومات المقتدرة ويبيد حضارتها . وأن في مطالعة تاريخ حياة الظالمين الذين رأوا عاقبة أمرهم دروساً وعبراً ، ونكتفي نحن هنا بذكر شاهد واحد من تلك الشواهد .

كان لمحمد بن عبد الملك موقع خاص بين وزراء الخلافة العباسية . وكان قد هيّأ هذا الوزير القسي الفتّاك لمجازات المذنبين السياسيّين تنّوراً من الحديد في جدرانه من الداخل مسامير نائتة ، كان يحبس السّجناء الأشقياء في هذا المكان الموحش المدهش ، ثمّ يسلّط عليه النّيران من الخارج حتّى تخرج أرواحهم بهذه الكيفيّة التعذيبية الفجيعة .

فلمّا بلغ المتوكل إلى الخلافة عزله عن الوزارة وسجنه في نفس سجنه هذا ، فلما بلغت روحه التراقي أو كادت طلب قلماً ودواتاً وكتب إلى المتوكل هذين البيتين :

هي السبيل فمن يوم إلى يوم
كأنه ما تريك العين في نوم

لا تـــجـــزعـــــن رويـــداً انـــهـــا دول
دنـــيـــا تـــنـــقـــل مـــن قـــوم إلـــى قـــوم

فلمّا بلغ الكتاب إلى المتوكّل أمر بإطلاقه ، ولكن كان صدور الأمر بعد أن كان الوزير القدير قد مات في سجنه بأشقّ الأحوال[1] .

نعم إنّ أولئك الذين يزعمون أنّ الدهر ليس إلّا صعيداً لتنازع البقاء ، يحاولون دائماً أن يحطموا الضعفاء تحت ضغط الحرمان تحكيماً لقدرتهم وحفظاً لشوكتهم ثمّ لا يرتدعون في ذلك عن أيّة جناية لا إنسانية . ولكن لا تمرّ الأيام والليالي حتى يستعر أوار الغضب من الصدور بنهضة أو ثورة تجرّ عليهم أيّاماً دمويّة عظيمة .

إنّ الظّلم لا يخص طبقة أو أفراداً معيّنين ، فكلّ إنسان في أيّ مقام وعلى أيّ حال حاول أن يستفيد من مزايا الحياة الدنيا لنفسه من دون أي قيد أو شرط ، وأراد أن يتجاوز في ذلك حدود القوانين العقلية والشرعية ، فهو ظلوم كفّار .

واليوم نرى ـ مع الأسف الشّديد ـ أنّ الظلم يطوي فيه مراحل الرقيّ والتقدم فنرى نيران الظلم والجور تستعر في أوساط المجتمعات البشرية وتهدد بناء الحضارة الإنسانيّة بالسقوط والدّمار ، فعمّال الظلم يدوسون حقوق المجتمعات البشريّة بأرجلهم ، وينهبون منابع ثرواتهم ومنافعها بكل ما لهم من حول وقوّة ، بينما يلوح تمثال (ملكة العدالة) بلا حول ولا روح .

* * *

دور الدين في مكافحة الظلم والظالمين :

وقد أعلن القرآن الكريم عاقبة أمر الظالمين إذ قال عزّ من قائل : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ (الكهف : ٥٩) .

إنّ قادة الدّين كانوا يدينون بدوام المجتمع البشريّ ، ولذلك كانوا قد جعلوا بسط العدل هدفهم الأصيل في الحياة ، وكانوا إذا رأوا انحرافاً في سير البشر حاولوا تغيير ذلك الانحراف بنهضة ضدّ ظلم الظالمين ، فكانوا أحياناً

(١) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٨٨ .

يسخرون مقدّراتهم ويطيحون بقواهم ، أنّهم كانوا يعدّون الظلم ذنباً لا يغفر ، وكانوا يهوّلون الناس من الظلم حتى أنّهم عدّوا الشرك نوعاً من الظلم . وأن سيرة قادة الدّين العادلة لهي أكبر عامل يوقظ الناس ضدّ ظلم الظالمين : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (الحديد : ٢٥) .

وحيث أنّ هدف الإسلام النهائي هي العدالة الشاملة ، أوصى بل كلّف أتباعه بالقيام بالعدل والمساواة بعضهم مع بعض بغضّ النظر عن العناوين والاعتبارات الشخصيّة ، ومنع من الظلم وسحق الحقوق أيّة كانت بالنسبة إلى أية طائفة كانت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين للّه شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ (المائدة : ٨) .

وقال الله تعالى في مورد العدالة في القضاء والحكم : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ (النساء : ٥٨) .

وقد أولى الإسلام عنايته إلى العدالة إلى حدّ أنه حكم بعدم صلاحيّة غير العادل للجلوس في مسند القضاء والحكم حتّى ولو كان واجداً لجميع المؤهّلات ماعدا العدالة .

وجعل من وظائف الأبوين الأساسيّة رعاية أصول العدل والمساواة بين أولادهم ، حتّى تتوطّد في طبائعهم هذه الصفة المهمة ولا يأنسوا بالظلم والعدوان . ومن أصول التربية رعاية العدالة في السّلوك معهم من جميع الجهات ، فإنّ الأطفال الذين يشهدون أمام أعينهم مشاهد من ظلم الأبوين لا يتربّون على الاتّصاف بالعدل والإنصاف ، بل تترعرع طبائعهم على الظلم والإجحاف ، ثم لا يكون سلوكهم في المجتمع إلاّ سحقاً للحق وتجاوزاً على حقوق الآخرين ، بل لا ينجو من ظلمهم حتى آباؤهم فإنّهم سوف يرون من هؤلاء الأبناء ردود فعل ظلمهم وقد كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يولي هذه النقطة التربويّة عناية خاصّة ، فكان يوصي أتباعه برعايتها إذ يقول : « اعدلوا بين أولادكم بالنحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر

واللطف »[٢] .

ويقول البروفيسور برتراند راسل : « إنّ النفس البشريّة تتّسع دائماً كالبخار ، وأنّ هدف التربية الصحيحة أن نجعل الضغط الخارجي التعليمي يتصوّر في ذهن الطفل بصورة الأفكار والعادات والميول العاطفية ، لا بصورة الضرب والتعذيب . والفكر اللازم في هذا الموضوع هو العدل ، وهو المفهوم الذي يجب علينا أن نحاول تثبيته شيئاً فشيئاً في أفكار وعادات الأطفال . والتربية الصحيحة على العدالة إنّما تكون فيما إذا كان مع الطفل أطفال آخرون أيضاً ، فهم يتنافسون حينئذ في مواضع اللعب التي لا يمكن الاستفادة منها إلاّ لشخص واحد في كلّ حين ، كركوب الدراجة وأمثالها ، فإنّنا حينئذ نأمل أن يجد هؤلاء مفهوم العدالة سريعاً ، فإنّهم وإن كان كل واحد منهم يريد اللذة لنفسه فقط دون غيره ولكن لا ينقضي العجب من أنّهم إذا قرّر الكبير بينهم قراراً للعدالة أسرعت فيهم تلك الأنانيّة إلى الانهزام والتخلّي لهذا الميل العاطفيّ العادل ، أنا لا أعتقد أنّ العدالة إحساس ذاتي وجبلي للانسان ، ولكني عجبت حينما رأيت أنّ بالإمكان إيجاد الإحساس بها بهذه السرعة في أرواح الأطفال . أنّه يجب أن يكون العدل الواقعي فلا يترجّح طفل على طفل أبداً . وإن كنت أنت تحبّ أحدهم أكثر من غيره وجب عليك الاحتياط والحذر من أن لا تؤثر العواطف أثرها في تقسيم المسرّة والابتهاج بينهم . ومن الأصول العامّة المقبولة أن يوجد لكل طفل لعبه على نحو يساوي لعب الطفل الآخر . وأنّ محاولة إلغاء رغبة الأطفال في العدالة بأيّة وسيلة كانت لهو عمل باطل[٣] .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم كما تحبون أن يبروكم »[٤] .

ويوصي الإمام أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) في إحدى وصاياه التي كتبها إلى محمد بن أبي بكر حينما نصبه حاكماً على مصر : « فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وأبسط لهم وجهك ، وآس بينهم في اللحظة

---

(٢) نهج الفصاحة : ص ٦٦ .

(٣) عن الترجمة الفارسية : درتربيت .

(٤) نهج الفصاحة : ص ٨ .

والنظرة ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم »[٥] .

إنّ السفراء الربانيّين هم مؤسّسوا أسس العدالة في المجتمع ، وهم الذين خطّطوا للبشريّة منهج التكامل الإنساني . تشرّف عقيل بن أبي طالب يوماً بمحضر أخيه الإمام الحاكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأخذ يشرح له فقره واضطراره ملحاً على الإمام يستميحه من برّ المسلمين صاعاً (يعادل ثلاث كيلوات تقريباً) إضافة إلى حقّه المقرر بالتساوي من بيت مال المسلمين : « والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحني من بركم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم ، كأنما سودت وجوههم بالعظلم ، وعاودني مؤكداً ، وكرر علي القول مردداً ، فأصغيت إليه سمعي ، فظن أني أبيعه ديني ، وأتبع قياده مفارقاً طريقتي . فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمها وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ أتئن من الأذى ولا أئن من لظي »[٦] .

وقال (عليه السلام) أيضاً بهذا الصدد : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته وأن دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها »[٧] .

ولقد أثبت الإمام الحسين (عليه السلام) بنهضته الكبرى ضدّ الظلم والعدوان صفحة العدالة ودين الإنسانية على جبهة الأيام ، وها هي تلك الصّفحة لا زالت تلمع على جبين تاريخ البشرية مدى الدهور .

---

(٥) نهج البلاغة : تعليق الدكتور صبحي الصالح ، ص ٣٨٣ .
(٦) نهج البلاغة : تعليق الدكتور صبحي الصالح ، ص ٣٤٦ .
(٧) نهج البلاغة : تعليق الدكتور صبحي الصالح ، ص ٣٤٧ .

العداوة والبغضاء

★ لماذا نعفو ونصفح عن السوء ؟
★ الأضـــرار التي نتحملهـــا نـــحن مـــن أثـــر البغضاء .
★ الإمام زين العابدين (عليه السلام) وردود فعله مع المعتدين عليه .

لا شك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتزل المجتمع ويقطع حبال روابطه مع أبناء نوعه وينزوي عن الناس ، إذ أنّ الإنسان موجود محتاج لا حدّ لحاجاته ولا حصر لفقره ، فهو بحكم فطرته وضرورته تبتني حياته على الأسس الاجتماعيـة لتحلّ تحت ظلال التّعاون والمساعدات عقد الحياة . ولكن الحياة الإجتماعية لها شرائط مختلفة ما أن يقدم الإنسان عليهـا حتى يقيّد بتلك الشـرائط والقيود والوظائف والآداب التي تتوقّف الموفقيّة في الحياة على رعايتها جميعاً .

إنّ الحيـاة الاجتمـاعيّـة ـ وهي أكثـر العـوامـل أثـراً في تكـون شخصيّـة الإنسان ـ لا ينبغي أن تتحدّد بحـدود الجسمانيّـات فقط ، بل يجب أن تكـون الروابط نتيجة لاتحاد الأرواح وترابطها واتّصالها ، وأن تكون الروابط الصـوريّة مظهراً لتناسبها وتوازنها ، وإذا كان المجتمع يتمتّع بوحدة معنوية صوريّـة تقوم الروابط العامة فيها على أساس الترابط الرّوحي الكامل ، فمحال أن تفقد الحياة حينئذ جمالها وصفاءها .

إنّ من وظـائفنا الأسـاسيّة في عـالم المعـاشـرة أن نتّصف بصفـة العفـو والإغماض عن أخطاء الآخرين ، فضلاً عن أنّ الرّوابط الإنسانية نفسها تقتضي ذلك .

وأنّ أحسن الطرق للتعايش السلميّ أن يسالم الإنسان الآخرين من أبناء نوعه .

ولا ينبغي للإنسان أن يغفل عن أنّه لا يخلو أحد في هذا العالم من عيوب ونقائص ، وأنّ أولئك الذين يتصفون بـالتوازن والاعتـدال الطبيعي والأخـلاقي الكـامل قليلون جـدّاً ، وأنّ أسمى الشخصيات أيضـاً لا يخلو عن خـطأ مّـا . ولذلك فيجب على كلّ شخص أن يتحمّل قسطاً من الأمور التي لم يكن يتوقّعها فيعفو عن أخطاء أبناء نوعه ، فإنّ السلام الدائم والوطيد لا يحصل إلاّ من طريق التّصالح في كثير من الموارد .

قديماً قال الشاعر : « لكل امـرىء من دهره مـا تعودا » ، وأنّ مـا يتعوّده ليس إلاّ وليداً لحالاته الروحيّة والخلقيّة ، وأنّ العفو والصفح من أبرز مظاهر قوة الإرادة وتملّك النفس ، وهما نوع من الشجاعة والفتـوّة . وأن الذين يتمتعـون بهذه الفضيلة فيعفون بعد قدرتهم على ما يريدون سيحصلون بذلك على صفاء وطمأنينة خاصة لا يعادلها أي شيء آخـر . أن العفو يـورث قوة الإرادة وتـربية الروح ، وهو موهبة أخلاقيّة تصبح منبعاً للرأفة والإحسان ، وهو وسيلة إلى تحرر الإنسان عن قيود عبوديّة النفس . أن الإغماض عن أسواء الآخرين وإن كان عبئاً ثقيلاً على طبع الإنسان ولا تقبله نفسه إلاّ بعسر وشدة ، ولكن كلّمـا اقتدر في هذا الطريق قلّت اضطراباته النفسيّة بشكل محسوس ، ويصبح في النهاية رحمة للعالمين .

إن العفو والإغماض سيؤثّر في عواطف العدو بصورة قاطعة ، مما يغيّر من فكره وعمله بتحوّل عاطفي سريع ، فكم من العلاقات المتوتّرة قد تحسنت في ظل الصّفح ، وكم من الحقـد والبغضاء والعـداء العميق والمتأصّـل تبدل إلى صفاء وإخلاص ، وكم من عدو قابل رجلاً قد تجهّز له بسلاح الأفكـار الشفيقة والمخلصة فاستسلم له وانقاد .

يقـول أحد العلمـاء : « إن من أكبر مـواهب الإنسان التي لا حظّ لسـائر الحيوانات فيها هو العفو والصفح عن أخطاء الآخرين . أن من يؤذيك يعطيـك فرصة حسنة تستطيع أن تعفو فيها عمّن ظلمك فتلتذ بلذة العفو عنه . لقد قالوا لنا أن نعفو عن أعدائنا ولم يقولوا لنا أن نعفو عن آبائنا وأصدقائنا أيضاً ، إذ من

المعلوم لنا أنه ينبغي لنا أن نعفو عن جميع ما يرتكبه الآخرون منّا سواء كانوا أعداء أم أصدقاء . إنك إذا انتقمت من عدوك كنت مثله إذ عاملته بالمثل ولكنك إذا عفوت عنه كنت أكرم منه إذ كان سيّئاً وكنت محسناً . إننا إذا أردنا أن ننتقم من أحد كان من المحتمل أن لا نقدر عليه ولكنا إذا عفونا عنه قدرنا عليه ، أننا بالعفو نستطيع أن نقهر أعداءنا بدون قتل وقتال ، وأن نحملهم على التواضع لنا . أنّ ترك الخصم والفرار من مقابلته لهو أحسن حملة دفاعية نعملها في مقابلتهم ، فإن هزيمتهم حينئذ هزيمة حتمية لا محالة منها أنه ينبغي لنا أن نبرّ إذ أضر الآخرون ، فإن البر في مقابلة الضر سياسة سماوية تستقر بها الأرض ومن عليها بهدوء وهناء » .

* * *

الأضرار التي نتحملها من أثر البغضاء :

ليس هناك أيّ عبء تحمله الأمراض الأخلاقية والنفسية الخطيرة والمختلفة التي تصيب الإنسان أثقل من حمل الحقد والعداء ، أن الحقد من أكبر ما يصيب راحة الإنسان وهناءه وسعادته ، وهو ينبع من القوة الغضبية . وأنه يهدم التوازن الروحي للإنسان . أن الرجل بعدما يغضب يعرض له ما يخفف اضطرابه النفسي ويخمد لهب نيران الغضب في قلبه ، ولكن قد تختبىء من هذه النار شرارة من الحقد والعداء تحت الرماد فتحرق سعادته وهناءه .

كما أن العفو والصفح من سمات الكرامة وتوازن الشخصية ومن عوامل السلام والوئام ، كذلك الحقد والعداء من مناشىء التشتت والاختلاف ، وهو من مظاهر الروح الدموية ، أن الغضب يعرض للإنسان فيسكن به ما في نفسه من قلق واضطراب ولكن ما يراه الإنسان من الأذى الذي يضنيه من غيره أقل بمراتب عديدة مما يصيبه من الألم من أثر محاولته مقابلة السوء بالسوء والشر بالشر ، فإن ذلك الأذى مهما كان من حيث الشدة سيبقى أثره مدة ثم يزول ، أما إذا التزم حبل الخصام جعل الحقد الدفين يوخز قلبه وضميره فيعذبه بذلك دائماً . وفوق هذا أن العداوة لا تذهب بشيء من الشر ، بل أنه يعمق الجرح ويوسعه ، والخصم أيضاً بمقتضى غريزة الدفاع يهيّىء نفسه ويجهّزها للدفاع مهما أمكن .

إن آثار العداء قد تكون مؤلمة جداً ، وقد يستحيل ترميم تلك الاختلالات التي تنشأ عنه ، فإنه قد ينتهي أمر الإنسان فيه إلى أن يحس بالعبء الثقيل على ظهره مدى عمره من الإحساس بألم ووخز الضمير من أثر خطأ كبير كان من ثمار العمل غير المعقول وليد الحقد والعداء ، وقد ينتهي أمره في ذلك إلى فاجعة في عاقبة سوء لا تحمد ، وهناك بعض الناس لا يوجد في قاموس حياتهم أي موقف من الصفح والكرامة ، فهم لا ينسون أي إجحاف عليهم أو إهانة إليهم مدى الدهر ، إن هذا الإفراط في الشدّة والحساسية الشديدة تحملهم على أن يصرفوا جميع قدراتهم وإمكاناتهم في سبيل الانتقام حتى ولو رموا بذلك أنفسهم في لهب النيران ، إن مثل هذه الطبيعة السريعة الغضب لا تتحمل أن تصغي إلى أصغر نقد عليها ، بينما نرى الرجال الأقوياء الناضجين يتعلمون من النقد نقاطاً بنّاءة ، فيهيّئون بذلك لأنفسهم عوامل الإصلاح .

يقول أحد العلماء : « أن التأثّر الشديد من الشخص علامة على عدم نضجه الكامل ، فإنه كثيراً ما يتفق أن لا يكون في الحقيقة أي تحقير أو إهانة فيما يوجب له التأثر بالنسبة إليه ، وإنما يكون قد تأثّر به بتوهم السبب من دون أي سبب واقعي . أو قد يكون هناك تحقير أو إهانة ولكنها غير متعمدة ، ففي هذه الصورة أيضاً لا ينبغي له أن يتألم ويشكو من ذلك . أما إذا كانت الإهانة متعمدة متقصدة ، فإن كانت توافق الواقع والحقيقة فتشير إلى عيب واقعي في الإنسان فإنها لا توجب للعاقل ألماً بل تورثه ندماً على ما فرط ويقظة فيما يأتي ، وإن كانت خلافاً للواقع وفي غير محلّها فلا ينبغي للعاقل أن يعتدّ بها ، إذ هي من حسود يريد به السوء ، أو حقود طفيلي العقل يحاول الانتقام ، أو من جهول يحاول التكبّر على الآخرين باحتقارهم وهتكهم والإهانة إليهم . ولا ينبغي أن يتألم العاقل من جاهل كهذا » .

إن محاولة الإنتقام في بعض الناس من ردود فعل (عقدة الحقارة) فيهم ، قد أبقى ما رأوا من الخشونة والضغط غير المطاق في دور الطفولة والصبا ، أو من مجتمعهم المحيط بهم آثاراً عميقة مؤلمة في قلوبهم ، فيصابون ـ كما في علم النفس ـ بعقدة حقد حادة وشديدة . وبكلمة أن الإنتقام من الوسائل التي يتوسل بها المصابون بعقدة الحقارة في سبيل جبران ما يحسون به

من فشل وانكسار ، فيترصدون لايذاء الآخرين بشتى العناوين المختلفة ، ويرتكبون في ذلك كل جرم وأية جناية مهما كانت . إن من العوامل المؤثرة في نسيان السوء الالتفات إلى الأهداف المقدسة في الحياة ، فإن من يصفي خلقه وروحه ويتوجه إلى الهدف المقدس من الحياة يصغر عنده كل شيء سوى ذلك الهدف ، فينظر إلى إساءة الناس بعين الإغماض وعدم الاعتداد . إن مدى التأثّر بإساءة الناس إلينا باختيارنا ، وبيدنا أيضاً أن نبدل أفكارنا من نوع إلى آخر فنلتفت إلى فضيلة نقابل بها صفة ذميمة ، وعلى هذا فبإمكاننا أن نقلل بإرادتنا أثر العوامل المختلفة في فكرنا ، وأن نتقوى بها على تحطيم حس الانتقام الذي يضغط على روحنا . وإن نحن غفلنا عن العمل بما يجب علينا من الوظائف الأخلاقية فلا يستطيع الآخرون أن ينصرونا ويساعدونا على تغيير ما بنا من خلق سيّيء: ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

وأن للإنتقام صوراً عديدة وأشكالاً مختلفة ، فهناك من يحمل منافسيه على أمور تنتهي إلى نتائج سيّئة وعاقبة شقية تعسة ، وهو يتظاهر في حمله لهم على ذلك بالإرشاد والإخلاص فهو ينتقم بذلك منهم بصورة ظريفة .

يقول أحد كبار علماء الغرب : « أن الحقد والعداء من أثر الحماقة ، وبالخصوص فيما لم يكن له أي سبب آخر . فإننا نستطيع أن نحلّ كثيراً من الموضوعات بطريق أخوي صادق إلاّ أن الكبر والغرور لا يدعنا أن نفعل ذلك ، فكثيراً ما نشرد عنّا أحبّاءنا وأصدقاءنا بأصغر شيء نراه منهم بالنسبة إلينا ، ومع أننا نعلم أن لا ذنب لهم في ذلك لا نعفو عنهم . ليت شعري كيف نقدر أن نخفف من عظم ظلمنا هذا إياهم »

***

الإمام السجاد (عليه السلام) وردود فعله مع المعتدين عليه :

إنّ حياة قادة الدّين دروس من الكرامة والشّرف والعفو والصفح والإنسانية ، وقد تجلّت مزاياهم الروحيّة في حياتهم وفي دروسهم هذه العمليّة لنا في أسمى الصور الممكنة .

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

كان علي بن الحسين (عليه السلام) جالساً بين جلسائه يوماً إذ وقف عليه رجل من أهل بيته (هو الحسن بن الحسن المثنّى) فأسمعه وشتمه ، فلم يكلّمه الإمام (عليه السلام) ، فلمّا انصرف قال لجلسائه قد سمعتم ما قال هذا الرجل ، وأنا أحبّ أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا منّي ردّي عليه . قالوا نفعل ، ولقد كنّا نحب أن تقول له ونقول . فأخذ الإمام نعليه ومشى وهو يقول : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين ﴾[٢] .

فعلم أصحابه أنه لا يقول له شيئاً إلّا جميلاً ، فلمّا أتى منزل الرجل قال : قولوا له : هذا عليّ بن الحسين . فخرج الرجل متوثّباً للشرّ ، وهو لا يشكّ أنّه إنّما جاءه مكافئاً له على بعض ما كان منه . فقال له عليّ بن الحسين (عليه السلام) : « يا أخي إنّك كنت قد وقفت عليّ آنفاً فقلت وقلت . . . فإن كنت قد قلت ما فيّ فأنا أستغفر الله منه ، وإن كنت قلت ما ليس فيّ فغفر الله لك ! » فقبّل الرّجل بين عينيه وقال : بلى قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحقّ به[٣] إنّ كلمات الإمام (عليه السلام) أثّرت في روح الرّجل فمحت عنه عذابه وأبدت على محيّاه سيماء الندم والتوبة متأسفاً على ما كان منه إليه . وبهذا أعطى الإمام (عليه السلام) لمن كان بصحبته درساً في العفو والصّفح والإغماض ، وأراهم التّوبة السعيدة التي حصلت لذلك الرجل بسبب العفو عنه .

وقال الإمام أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) : « قلة العفو أقبح العيوب والتسرع إلى الانتقام أعظم الذنوب »[٤] .

إنّ ذوي المروءة يغضّون النظر عن زلّات إخوانهم ويعفون عنهم بكرامتهم .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « معالجة الذنوب بالغفران من أخلاق الكرام »[٥] .

---

(٢) سورة سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .
(٣) الإرشاد للشيخ المفيد (ره) : ص ٢٥٧ . طبعة النجف الأشرف .
(٤) غرر الحكم : ص ٥٣٧ .
(٥) غرر الحكم : ص ٧٦٨ .

والقرآن قبل ذلك أوصى المسلمين بالعفو والصفح فقال : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾[6]

وقال عزّ من قائل : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[7] .

إنّ العفو عند المقدرة من الصفات القيّمة النفيسة جداً حتّى أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) عدّه من صفات الأنبياء والمتّقين : « العفو عند المقدرة من سنن المرسلين »[8] .

وعدّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) العفو من أحسن الأسلحة لردّ كيد الأشرار والفجّار إذ قال :

« عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شرّه بالإنعام عليه »[9] .

لقد كشف الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) حقائق حسّاسة في موضوع الحقد ببيان فصيح ومختصر جامع ، منها أنّ الحقود يصاب بنوع من القساوة وفقدان العواطف الرحيمة : « أشد القلب غلاً قلب الحقود »[10] .

ويقول أحد علماء النفس : « أنّ الحقود يصبح سريع الغضب قسيّاً في الخصومة ، من الذين يحرقون السوق نقمة لضياع منديلهم . وأنّ المنتقمين وإن كانوا مؤدّبين ومهذّبين وذوي لين طبع في الظاهر ولكنّه يكمن في باطنهم بحر موّاج من نيران الحقد والانتقام ، كبر كان ينطوي على الانفجار فهو يفور في أول فرصة ممكنة فيحرق الرّطب واليابس وكل عدو وصديق »[11] .

إن الحقود يعذبه اضطراب عميق بعذاب روحي دائم ومستمر : « الحقود

---

(٦) سورة النور ، الآية : ٢٢ .
(٧) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .
(٨) سفينة البحار : ج ٢ ، ص ٧٠٢ .
(٩) نهج البلاغة المترجم : ص ١١٥ .
(١٠) غرر الحكم : ص ١٧٨ .
(١١) عن الفارسية : روانكاوي .

معذب النفس متضاعف الهم »[١٢] .

ويقول الدكتور دايل كارنيجي في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في الناس) : « إنّنا حينما نضمر الحقد والعداء لأعدائنا في صدورنا نكون قد سلّطناهم بأيدينا على أكلنا وشربنا ونومنا وصحّتنا وسرورنا بل وحتى على دمائنا ودرجة ضغطها ، إنّنا نقدرهم بذلك على هذه الأمور في أنفسنا . إن حقدنا لهم لا يؤذيهم شيئاً بل أنّنا نبدل به حياتنا إلى جحيم لا يطاق » .

إن علماء النفس اليوم أصبحوا يكشفون عن الأمراض الروحيّة والنفسيّة في اللاشعور عن طريق التّحقيق التّجريبي ثم يبادرون بعلاجها ، وقبل ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « عند تصحيح الضمائر يبدو غل السرائر »[١٣] .

وأن من خصائص الحقودين النفسيّة أنّهم ما لم ينتقموا من خصمهم لا تنطفىء فيهم نيران حقدهم ، وقديماً قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الحقد نار كامنة لا تطفىء إلّا بالظفر »[١٤] .

ويقول أحد علماء النفس : « أن الحقود يحمل الآخرين على طاعته والتمكين له والصّمت أمامه بوسائل التهديد والعتاب والخطاب الشديد غالباً وأن هذه الطريقة في الانتصار والظفر على الآخرين مشروعة لدى المنتقمين بل يحسبونها ضرورية وهيّنة وهي عند الله عظيمة ، حتّى أنهم إذا التجأوا يوماً مّا إلى العفو بدل الانتقام لاموا أنفسهم على ذلك بشدّة واتهموها بالضعف والوهن .

أعرف أحد كبار الضباط الدارسين ، ردمت سيارته يوماً دراجة هوائية كان يسوقها فقير حمل في الشبكة التي على العجلة الخلفية جرتين خزفيتين من اللبن ، فطرحه مع لبنه الذي كان يحمله صريعاً على الأرض فبيّض اللبن وجه الشارع الأسود وأصبحت العجلة الخلفية المدورة مثلثة من شدة الصدمة ! ولعله

---

(١٢) غرر الحكم : ص ٨٥ .
(١٣) غرر الحكم : ص ٤٩٠ .
(١٤) المصدر : ص ١٠٦ .

كان الخاطىء هو المسكين صاحب العجلة ، ولكن حالته حينئذ كانت ـ بحق ـ تستحق الرقة والعطف والحنان لا الفحش والشتم والسباب المقذع الذي كان ينشره عليه ذلك الضابط الكبير المثقف . ولكن المسكين صاحب الدراجة قام من على الأرض جريحاً يحبو على رجليه آيساً من الحياة عازماً على الموت غير عاجز عن إجابة الضابط صاحب السيارة ، فكان يكيل له كل بغضه الذي كان بقلبه منذ أعوام مديدة تحمّل في طوالها كثيراً من ظلم المقتدرين ، بأقبح الألفاظ وأشنعها وأخسها . وأراد صاحبي أن ينزل من سيارته كي يؤدب ذلك المسكين صاحب اللبن الذي كان قد تجرأ على أن يشتم ضابطاً كبيراً ، فمنعته أنا وصديقي الآخر الذي كان معنا في السيارة ، ولم ينصرف عن ذلك إلا لخاطرنا . ولكنه في طول تلك المدة التي قضيناها معه في ضيافة في تلك الليلة كان يلومنا ويلوم نفسه على أنه لماذا لم يكافئه بجرمه . وأخيراً لم يعف عنّا ولا عن نفسه ضعفه الذي تحمله لخاطرنا بعفوه وإغماضه عن ذلك المسكين »(١٥) .

نعم إن الحقد يثير الغضب كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الحقد مثار الغضب »(١٦) .

ويقول أحد علماء النفس : « أن الحقود إذا لم تقض له ما يريد ـ ولو كان ما يريده في غير محله ـ غضب لذلك غضباً شديداً ولم يسترح باله حتى ينتقم من خصمه الذي لم يقض له ما يريد »(١٧) .

وإنما يصل الإنسان إلى راحة الروح والضمير والفكر والنفس فيما إذا محا صورة الحقد عن قلبه .

فقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « من أطرح الحقد استراح قلبه ولبه »(١٨) .

---

(١٥) عن الفارسية : روانكاوي .
(١٦) غرر الحكم : ص ٢١ .
(١٧) عن الفارسية : روانكاوي .
(١٨) غرر الحكم : ص ٦٦٦ .

ويقـول أحد علمـاء النفس : « أن الإنسان كلمـا كـان يضبط نفسـه عن الإفراط والطغيان في الغضب والحقد ، ابتعـد بنفس تلك النسبة عن الإصـابة بأنواع الأمراض العصبية التي تجر إلى فقدان التوازن الروحي للإنسان »(١٩) .

وبكلمة نقول : أن السعيد من نزّه بـاطنه ودخيلة نفسـه عن العداء وحب الانتقام .

فقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « خلو الصدر من الغل والحسد من سعادة العبد »(٢٠) .

وفي الختام يجب علينا أن ننبـه إلى نقطة مهمـة ، وهي أن الإسلام في بعض المـوارد لا يبيح الصفـح والإغمـاض عن بعض الأعمـــال ، فحيث أن الإسلام جعل حفظ النظام هدفاً نصب عينيه عد الجزاء ضرورياً لازماً فيما إذا كان العمل السيّء الشخصي من نـوع التعدي والتجـاوز على شؤون المجتمع والإخلال بالأمن الاجتماعي ، كموارد (الحدود) دون (القصاص والديات) ، فإن الديات والقصاص من حقوق الناس المباح أخذهـا وتركهـا ، والحدود من حقوق الله المفروضة .

---

(١٩) القسم النفسي من مجلة سلكسيون .

(٢٠) غرر الحكم : ص ٣٩٩ .

الغضب

★ الآثار الطيبة لكظم الغيظ .
★ الغضب وآثاره الضارة .
★ إرشاد وهداية من قادة الدين .

إن هذا الوجود الإنسانيّ ذا الأسرار العجيبة قد جهّز بقوتين عظيمتين هما (العقل والإرادة) . والعقل نور في الرّوح الإنسانيّة يعيّن لها مصيرها في الحياة ، وهو يعدّ المعرف للشخصية الواقعية لكل إنسان . إنّه مصباح منير يشع بأنواره على صفحات هذه الحياة المظلمة ، فلا نتقدم نحن في الدروب الملتوية في هذه الحياة إلا بهدايته وإرشاده .

وأن الإنسان مكلّف بالسعي في سبيل تربية الإحساسات المختلفة التي يجدها في نفسه ، فيضبطها عن الإفراط والتّفريط . والقوة العاقلة هي التي ترينا الحدود المعقولة للعمل بالإحساسات الصّحيحة ، كي نستفيد من هذه الذخائر طبق الموازين الصحيحة ، وحتى لا تقهرنا هذه الغرائز العاتية على اتّباع أوامرها مهما كانت . أنّه إذا كان نور العقل يشعّ في محيط عواطفنا فلا بدّ لشمس السعادة أن تسطع في سماء حياتنا أيضاً ، أمّا إذا كنّا مطيعين لغرائزنا أسارى لأحاسيسنا فإنّنا سنفقد استقلالنا وستضعف شخصيتنا فنهزم في جميع المجالات .

إنّ للإرادة ـ وهي من أكبر العوامل الأخلاقيّة وأقوى الوسائل للوصول إلى المقاصد الحسنة والآمال الطيّبة ـ دخلاً تامّاً في أساس سعادة الإنسان ، وهي التي تحفظ شخصيّة الإنسان عن متناول الرّجس والرّذائل في الحياة .

وأنّ الشرط الأساسي للهناء في الحياة لهو الحصول على إرادة قوية قاطعة ومقتدرة ، كي يستطيع الإنسان في مواجهة الحوادث التي تؤثّر في نواحي مختلفة من حياته أن يقاومها بشدّة واستقامة . أنّنا كلّما سعينا في تربية هذه القوّة التي هي مدار الموفقيّة في الحياة تمكّنا بنفس النسبة على إلزام أنفسنا على اكتساب الفضائل والاجتناب عن أضدادها ، واستقرّت أرواحنا وابتعدت عن التّزلزل والانحراف .

يقول أحد مفكّري الغرب بهذا الصدد : « هناك تعريف جميل للعقل يشتمل على صفة توازن العقل أيضاً ، وهو التّعبير عنه بـ (القوّة المنظّمة) ، وهذه القوّة المنظّمة في الإنسان بنوعيه الذكر والأنثى تكون بمنزلة جهاز تنظيم السير للسيارات الذي يمنعها عن الاصطدام والانحراف ، والذي تجهّزت اليوم كثير من السيّارات الفخمة الثمينة به ، وعمله أن يذهب بأثر الهزّات العنيفة التي تحدثها الطرق والمصادمات المفاجئة ، كي لا يتعب المسافرون ويحسّون بالراحة والطمأنينة حتّى في أشق الطّرق وأصعبها . إنّ الجريمة ليست إلا مرآة للتعريف بالشخصية غير المتوازنة ، إنك في اللحظة التي تفقد فيها حكم العقل تفقد فيها اختيارك وإرادتك الجديّة على نفسك أيضاً ، وأنّ الشخص الذي لا يكون تحت حكم العقل يصبح شخصاً خطيراً فضلاً عن أنّه يفقد دوره كمؤثر إيجابيّ في الحياة ومن ثمّ لا يكون شخصاً مفيداً ومعمّراً بل مضرّاً ومخرّباً . إن الجدول الصغير الذي يجري بين الصخور في الجبال لكلّ جزء من أجزائه صوت أعظم من أصوات الأنهار العظيمة ، أمّا الرجال ذوو الأخلاق العظيمة فهم ـ على العكس من ذلك ـ كالأنهار العظيمة إذا جرت في الأهوار والمستنقعات من دون أن يكون لها شيء من الأصوات أو الاضطرابات » .

إنّ الطّبيعة الخشنة والحادّة تحتاج إلى إرادة متينة ومحكمة ، إذ لو لم تدخل مثل هذه الطبيعة تحت قيادة قوة قويّة من الإرادة اعتادت على العتوّ والطغيان ، فتحمل صاحبها في المواقع الحساسة التي يرد فيها الضغط والألم عليه على اتّخاذ قرارات عاجلة ثوريّة ممّا تجرّه في النهاية إلى عاقبة مؤلمة .

***

الغضب وآثاره الضارة :

إنّ من الحالات النفسيّة التي توجب انحراف الطبع عن المجاري المستقيمة هوَ الغضب ، إن الغضب إذا استولى على الإنسان وحاصره اتّخذ حالة العتوّ والعصيان والطغيان ، وارتفعت الموانع عن تجوال الغضب في ساحة اختيار الإنسان وإرادته ، فآذى بذلك صاحبه ما أمكنه . أن حجاب الغضب يحجب عين العقل في الإنسان ويسلبه قوّة الإدراك . أنّ الغضوب قد يضطرب إلى حد أن يظهر في صورة حيوان لا إدراك له فيفقد إحساسه ورؤيته للواقع والحقيقة ، فيرتكب أعمالاً وجرائم مهولة قد تؤدي به إلى الخسران الدّائم ، ولا يتوجه إلى ذلك إلاّ حينما يصطدم بالعواقب غير المحمودة ويقع في هوّة الشقاء .

إنّ هذه الخصلة المشؤومة لا تعقب إلّا الندم ، إذ لا تهدأ فورة الغضب حتى تستولي على صاحبها النفس اللوّامة فتقبّح أعماله المتأجّجة بنار الغضب فتحكم عليه في محكمة العقل والوجدان ، فتظهر على أثر حكمها عليه موجات من التأثّر والأسف الشديد مقرونة بالألم في أعماق قلبه .

إنّ الغضب لا يحاصر روح الإنسان بالحزن والألم فحسب بل لا ينجو حتى الجسم ـ وهو محل راحة الروح والنّفس والفكر ـ من عواقبه الخطيرة . عندما يشتعل لهيب الغضب المحرق في وجود الإنسان ينصب الدم إلى القلب فينتشر في عروقه ، فيحمر لون وجهه ، وتأخذه الرعدة والرعشة ، وتتأهّب جميع الأعضاء لعمليّة الانتقام ، ثمّ تستتبع من أنواع الأمراض التهاب الأعصاب والسلّ الرئويّ وأنواع النّزيف الدموي . وأنّ من العوامل التي لها الأثر الكبير في عروض الغضب هو تسمّم الدّم الذي يحصل للإنسان على أثر اعتياده على شرب الخمور .

ولا ينبغي الغفلة عن أنّ وجود القوّة الغضبيّة في حدّ اعتدالها شيء ضروري لا بدّ منه ، وهي ما لم تتجاوز حدودها المعقولة ضرورة قطعية تعتبر سمة المروءة والفتوة ، فإن الغضب الذي يحمل الإنسان على المقاومة في وجه الظّلم والدّفاع عن حقّه والحقيقة لهو من المزايا السامية للإنسان .

إنّ حبّ الانتقام من الأمور التي تورث حياة الإنسان ظلاماً وقتاماً ، وخرقاً لا يلتئم بين الناس . وأنّ هذا الإحساس المشؤوم غالباً يصحب الغضب . ونحن إذا كنّا نريد أن نعارض كل سوء بالمثل فنسكّن إحساسنا بحبّ الانتقام بجراحات ألسنتنا التي نوردها على الخصم كان معناه أن نصرف حياتنا بصورة عامة في النّزاع والمخاصمات والمضاربات في خطّ مستمر متسلسل ، وفوق ذلك أنّا نفقد قوّة إرادتنا ونتحمل عار ضعف الهمّة .

إنّ الإنسان معرض للخطأ والنسيان ، فإن كان هناك إنسان ثارت ثورة غضبه لخطأ كان منّا فخير طريق لحمله على العفو عنّا هو أن نعترف بخطيئتنا له . يقول دايل كارنيجي : « إذا تبيّن لنا أنّا نستحق تأديباً أو تأنيباً أليس الأفضل أن نستقبل العقوبة بأنفسنا فنعترف بالخطأ ؟ أليس اللوم الذي نوجّهه نحن إلى أنفسنا أنسب وأحرى من التّوبيخ الذي يوجّهه إلينا الآخرون ؟ فلنبادر إلى الإعتراف بكل لوم مقذع يقصد الآخرون أن يوجّهوه إلينا ، لننطق به كي يجرّد الخصم من سلاحه ، فإنّه من الممكن أن تأخذه الرقّة حينئذ علينا بنسبة ٩٠٪ وأن يعفو عنّا على أثر ذلك . أنّه يستطيع أن يغطّي على ذنبه كل أحد حتى السفهاء ، أمّا الذي يعترف بذنبه فهو من أولئك الرجال المرموقين الذين يحسّون في دخيلتهم من ذلك بلذّة شريفة ونادرة . إذا كنّا مطمئنّين من أن الحق إلى جانبنا وجب علينا أن نسعى في تدبير صورة ملائمة نستميل الآخرين إلى جانب حقّنا ، أمّا إذا كنّا خاطئين وجب علينا أن نعترف بالخطأ بصورة صريحة وفورية . وأن الخطأ في أعمالنا أكثر من الصّواب شريطة أن تكون لنا بصيرة نبصر بها الخطأ من الصواب . أنّنا بعد الإعتراف بأخطائنا لا نصل إلى نتائج الاعتراف الطيّبة فحسب بل نحسّ بلذّة الاعتراف أكثر من السعي في الدفاع عن أنفسنا » .

إن العفو يورث قلب الإنسان نور المسرّة الواقعية وأمواجاً من العواطف والإحساسات الإنسانية النبيلة . بل أننا بالعفو والصفح نقهر الخصم على الخضوع والاستسلام ، وأنّه يورثنا الأمن والثقة بالنفس والآخرين ، وأنّه يشرق من خلاله نور المحبّة والوئام ، وهو يحمل الخصم على الائتلاف وترك الخصومة والنزاع .

إن العلم والتجارب من وسائل تقليل العنف وتهذيب الأخلاق ، أنّه إذا اتّسعت دائرة معارف الإنسان تفتّحت آفاق تفكيره فازدادت قدرته على مقاومة مخادعة النفس وأصبح من الصّابرين وكثر عفوه وصفحه عن أخطاء الآخرين أكثر من غيره .

***

إرشاد وهداية من قادة الدين :

أنّه ليس لهذا المرض الروحي الخطير أيّ علاج أنجع من تعاليم الأنبياء وقادة الدين الحنيف ، وما جاء به الأطباء والعلماء النفسيون بهذا الصّدد وإن لم يكن عقيماً لكنّه ليس قطعيّاً في العلاج . أمّا أئمة الدين فإنّهم وجّهوا بصائرنا بكلماتهم الحكيمة إلى عواقب الغضب الخطيرة ، وفوائد كظمه العظيمة .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : « اتقوا الغضب فإنه يجرّ العتب » .

ويقول الدكتور ماردن : « أن الشّخص الغضوب ـ مهما كان لغضبه من سبب ـ فإنّه بعد أن تهدأ ثورة غضبه يلتفت إلى لغويّة غضبه حتّى أنّه قد يعترف غداً بوجوب الإعتذار ممن أهانه في غضبه أمس ، إنّكم إذا عودّتم أنفسكم على أن تقضوا بهذا القرار بالإقرار والإعتراف بالعبثيّة في الغضب في نفس حين الغضب تكونون قد قللتم اضطراب الغضب في أنفسكم إلى الحد الأدنى »[1] .

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم ، من لم يملك غضبه لم يملك عقله »[2]

إن للغضب والإضطراب الحاصل منه في نظر الأطبّاء عواقب خطيرة حتّى أنّهم قالوا أن من الممكن أن يؤدي اضطراب غضبي شديد إلى موت الفجأة أحياناً .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « من أطلق غضبه تعجل

---

(١) عن الفارسية : پيروزي فكر .

(٢) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

حتفه »[٣] .

ويقول الدكتور ماردن : « هل يعلم أصحاب القلوب الضعيفة أن من الممكن أن تؤدي بعض الاضطرابات بحياتهم ؟ من الممكن أن لا يتصوّروا هذا ، ولكن ليعلموا أن هناك بعض الأصحّاء السالمين قد أضحوا فريسة اضطرابات مختلفة ، فكم قد رأينا أن بعض حالات الغضب أدى بصاحبه إلى السكتة القلبيّة .

إن الغضب يذهب بشهوة الطّعام ، ويعسر حركة الهضم ، ويوجد الخلل في التوازن العضوي والعصبي ساعات بل أياماً ، إنّه يؤثر في جميع الإمكانات الجسمانية والقوى الفكرية والمعنويّة . وأن غضب الأم المرضعة قد يؤدي بلبنها إلى التسمم الخطير »[٤] .

ويقول الدكتور مان : « أن التحقيقات العلميّة التي أجريت على الآثار الفيزيولوجيّة للإضطرابات دلّت على حركة عامة في جميع الأعضاء . فالقلب والعروق والمعدة والمخ والغدد الداخلية تتغير حركتها كلها عند الغضب . وأن لترشح غدة آدرنين أهميّة خاصة إذ تجعل هذه من نفسها وقوداً جديداً لحركات الأعضاء عوضاً عن سكر الكبد »[٥] .

وقال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً : « إياك والغضب فأوله جنون وآخره ندم » .

وقال (عليه السلام) أيضاً : « الغضب نار موقدة ، من كظمه أطفأها ومن أطلقه كان أول محترق بها »[٦] .

ومن أجل مقاومة الغضب أوصى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالحلم والصبر فإنّنا من أجل الابتعاد عن ألم الغضب بحاجة ماسة إلى الصبر .

قال (عليه السلام) : « احترسوا من ثورة الغضب وأعدوا له ما تجاهدونه

---

(٣) غرر الحكم : ص ٦٢٥ .
(٤) عن الفارسية : پيروزي فكر .
(٥) عن الترجمة الفارسية لكتاب : علم النفس للدكتور مان .
(٦) غرر الحكم : ص ٧١ .

به من الكظم والحلم »[7] .

وقال (عليه السلام) : « ضبط النفس عند حادث الغضب يؤمن من مواقع العطب »[8] .

إنّ من الممكن أن يندفع الإنسان بغضبه إلى القتل : « أي شيء أشد من الغضب ؟ أن الرجل يغضب ويقتل النفس التي حرّم الله »[9] .

ويقول الدكتور ژان ماركويست : « هناك بعض أصحاب الأمزجة العصبيّة التي تستعرض أفكار الجرائم بسرعة الأفلام السينمائية ، وهذه الصفة من الخصائص النفسيّة لهؤلاء المرضى ، أن هؤلاء يفكرون في ارتكاب الجريمة في أقل من آن ما فيعملون بها تهوّراً ، إن هؤلاء يسمّون بالقاتل في لحظة »[10] .

وقد أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لمواقع غلبة الغضب بأمر جميل إذ قال :

« . . . فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء »[11] .

ويقول الدكتور ويكتور پوشه : « إذا كان الطفل يغضب كثيراً من دون أن تكونوا قد أغلظتم له في الكلام ، فبإمكانكم أن تسكنوا غضبه هذا بغسله بالماء البارد أو لفّه في خرقة منقعة مبللة أو رطبة »[12] .

وقال الدكتور ژيلبرت روبن : « أن لنظافة الجسم أثراً كبيراً في الأخلاق ، فإنّ الاستحمام بالماء الفاتر في كل صباح ومساء بعد الفراغ من العمل اليومي ينظّف البدن ويريحه ويذهب بالسأم والملل والضجر وفقدان الشهية ، ويسكن

(٧) المصدر : ص ١٣٣ .
(٨) المصدر : ص ٤٦٢ .
(٩) الوافي : ج ٣ ، ص ١٤٨ .
(١٠) عن الفارسية : مجموعة چه ميدانم .
(١١) عن إحياء العلوم : ج ٢ ، ص ١٥١ .
(١٢) عن الفارسية : راه خوشبختي .

الغضب الذي قد تحرّك . ولذلك فبإمكانا أن نقول بتساوي آثاره الجسدية والأخلاقية »[١٣] .

وأن حياة قادة الدين في الحقيقة مصباح يجب علينا أن نسلك به سبيل الحصول على الفضائل الأخلاقية . أنّنا ندرك مدى الصبر وتملك النفس فيهم وكظمهم الغيظ مع أعدائهم من كيفيّة سيرهم وسلوكهم في الحياة ، وذلك لنا درس عظيم . ونحن نذكر هنا نموذجاً لذلك :

فمن حلم الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) ما رواه ابن شهرآشوب في مناقبه قال :

« روى المبرّد وابن عائشة أن شاميّاً رآه راكباً فجعل يلعنه ، والحسن (عليه السلام) لا يرد ، فلمّا فرغ أقبل الحسن (عليه السلام) فسلّم عليه وضحك ، وقال : أيها الشيخ أظنّك غريباً ، ولعلك شبّهت ، فلو استعتبتنا أعتبناك[١٤] ولو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، ولو استحملتنا حملناك ، وإن كنت جائعاً أشبعناك ، وإن كنت عرياناً كسوناك ، وإن كنت محتاجاً أغنيناك ، وإن كنت طريداً آويناك ، وإن كان لك حاجة قضيناها لك ، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك ، لأن لنا موضعاً رحباً ، وجاهاً عريضاً ، ومالاً كثيراً . فلما سمع الرجل كلامه بكى ثمّ قال : أشهد أنك خليفة الله في أرضه : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ ، والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ . وحوّل رحله إليه ، وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبّتهم »[١٥] .

---

(١٣) عن الفارسية : مجموعة چه ميدانم .
(١٤) استعتبه استرضاه ، واعتبه قبل عتابه ورضي عنه .
(١٥) المناقب لابن شهرآشوب : ج ٤ ، ص ١٩ .

نقض العهد

★ مسؤوليات مختلفة .
★ أهمية العهود ومفاسد نقضها .
★ تحريم الإسلام نقض العهود .

إن الإنسان يلتفت إلى مسؤولياته المختلفة في مراحل حياته عندما يقتدر على أن يتوجه بقوة عقله إلى مختلف مسائل الحياة ويميز به الحقائق من الأباطيل . وحينذاك يعرف أنه مكلف بأن يتحمل الأنظمة التي يحمله إياها نظام الحياة ، ويتقيد بسلسلة من المقررات القطعية التي يتوقف عليها سعادة الإنسان وتكامله فيها ، وبكلمة أن يوفق بين سلوكه والحوائج الحقيقية الجسمية والنفسية . أن تحمل المسؤوليات في جميع الشؤون المادية والمعنوية ضرورة يعلنها العقل والوجدان في كل إنسان ، ويدعوانه إلى الصبر والثبات في سبيل العمل بها ، فذلك أضمن السبل لرقي المجتمع وتقدمه واطراده ، ويشجبان جميع العوامل التي تسبب اضطراب نظام الحياة وانحطاط الإنسان فيها . أن للإحساس بالمسؤولية أثراً كبيراً في تربية الفضائل الأخلاقية والمعنويات ، وليست المسؤولية عبودية بل هي الحرية الواقعية والحقيقية ، وهي ترسم له خطط سلوكه طبق النظام الأصلح . وهي تمتد مدى الحياة بأشكال مختلفة في مختلف نواحيها . وإنما يصح أن يؤاخذ الإنسان ويسئل عما فعل فيما إذا كان متمكناً ومستعداً لتحمل مسؤولياته .

إن عدم الالتزام بالمسؤولية والتجاوز عن حدودها تغافل عن قواعد الحياة ، وهو مقدمة الشقاء والانحطاط ، فلا ذنب أكبر من تناسي التكاليف

والوظائف والانقطاع عن القيود اللازمة بحجة الحرية الفردية المطلقة . إن فقدان الإحساس بالمسؤولية أضر داء معد في المجتمع ، فإنه يولد التضاد بين أفراده ويسبّب ظهور الاختلافات . فلا بد من أن نمنع سحق التكاليف في سبيل تحقيق الشهوات . أما الأسرى في قيد الشهوات فهم يرجحون آمالهم وأمانيهم ومنافعهم الشخصية على العمل بالوظائف والتكاليف ، وهذا هو منشأ سقوطهم وانحطاطهم وترديهم ، فلن يبلغ هؤلاء صعيد التكامل الانساني أبداً .

يقول الدكتور كارل : « أنّ إنساناً يحسب نفسه مطلق العنان لا يشبه البازيّ المتجوّل في الفضاء اللاّمحدود ، بل هو أشبه بكلب هرب من مسكنه وصادف أن جرّه حظّه إلى شارع مزدحم يتجوّل فيه بين السيارات من هنا إلى هناك ، إنّ ذلك الإنسان أيضاً يستطيع أن يكون كهذا الكلب يعمل بهواه فيذهب حيث يشاء ، ولكنه أضلّ من هذا الكلب إذ أنّه لا يدري أين يذهب وكيف يتخلّص من المخاطر المحيطة به .

إننا نعرف أنّ الطبيعة لها قوانين تحكمها وتسيرها ، فيجب علينا أن نفكّر أنّ حياة الإنسان أيضاً يجب أن تكون محكومة تحت سلسلة من المقرّرات والأصول . ولكننا كأنّنا نحسب أنفسنا أحراراً عن الطبيعة في استقلال كامل ، فنحبّ أن نعمل بما نريد . ولا نريد أن نفهم أنّ قيادة الحياة ليست بأقلّ من قيادة السيارة من حيث وجوب الالتزام ببعض القوانين . كأنّنا اليوم نظنّ أنّ المصير الحقيقيّ للإنسان ليس إلاّ الأكل والشرب والنّوم والنّكاح ، وامتلاك سيّارة ، وراديو وسينما ، ورقص ، وثروة ، ونرى أن الناس يتنعّمون بحياتهم بين تبوغ أنواع السجاير ونشوة السكر من الخمرة . . . » .

إن الالتزام بالنظام ضروريّ للمجتمع البشريّ ، ولا يحصل ذلك إلاّ برعاية بعض المقرّرات بصورة مستمرة . فمن كان معتمداً على قواه الذاتية وهمّته الشخصية نظر إلى حقائق الحياة بنور العقل والمنطق وتمكن بذلك من تحمل المسؤوليات المختلفة ، فهو ينظم برنامج حياته وفقاً لأصول الصدق والحق ، ويستقبل ما عليه من التكاليف بالوظائف برحابة صدر ، فإذا فشل في شيء من ذلك كان معتزّاً بنفسه أيضاً إذ أنّ هذا الفشل لم يحصل إلاّ من العمل بمسؤولياته .

إننـا يجب علينـا أن نفتّش عن السعـادة في الفـرحــة الحقيقيـة ، وهي والطمأنينة تسعفان أولئك الذين يعملون دائماً بنداء وجدانهم . إن رضا النفس وارتيـاح الفكر والضميـر لهو خيـر جزاء يتلقـاه العاملون بـوظـائفهم ، إن هـذا الإحسـاس المفرح والمبهـج لا ينشـأ إلاّ من عمق أرواح العـاملين بـوظـائفهم وتكاليفهم في الحياة .

* * *

أهمية العهود ومفاسد نقضها :

إن من مسؤوليـات الإنسان الخـطيرة في الحيـاة حفظ العهود التي يلتـزم العمل بها . وهو يحس بقبح نقضها وحسن الوفاء بها في جميع الأمور الفـردية والإجتماعية من أي دين كان أو لم يكن ، فإن إدراك لزوم الوفاء بالعهد من فطرة الإنسان ، وهو من أسس سعادته . إن للأسس التي تبنى في ضمير كـل إنسان من دور الطفولة تأثيراً كبيراً في ما يفعل في مستقبل حياتـه أو يترك ، ومن هنـا يتضح ضرورة الالتفات إلى التربيـة الصحيحة والاستفـادة من نتائجهـا المثمرة والثمينـة والاحتراز عن الأمـور التي تضر بـأساس الفـطرة ، إذ هي التي تشكل أسس الصحة والسلامة الأخلاقية .

إن الأخلاق تحكم باحترام وتقدير كل قرار قولي يعقد بين الطرفين وإن لم يكن له ضمان رسمي وقانوني . وأن نقض العهـد يعدّ في الحقيقـة تحرّراً عن قيود الشرف والفتوة ، وأن التجاوز عن العهود من دون موافقة الطرفين نوع من عدم المروءة . وقد قال بوذرجمهر : « أن نقض العهد يبعد عن الفتوة بفواصل بعيدة جداً » .

إن الذي ينحرف عن الصراط المستقيم فينقض العهد بكل سهولة ويسر ، إنمـا يبذر بعمله هـذا المضر بـذور التأثـر والعناد في صـدور الآخرين عليـه ، وسيضطر إلى أن يتحمل الخجل منهم من عمله هذا ، ثم هو يحاول أن يغطي على عمله هذا ولو بالمعاذير المتناقضات ، ولكنه لا يـظفر بـالتالي إلاّ بـإثبات شخصيته المنافقة وغير المستقيمة في الوجود .

إن نقض العهود أكثر العوامل أثراً في تشتيت شمل المجتمع الإنساني وأن

شيوعه بينهم يسبّب لهم الضعف والانحطاط ، ويوهن حبال المودة بين النـاس ولا شك أن المجتمع الذي يحكمه التشتت وفقدان الثقة المتبادلة سيفقد توازن الحياة وتعادله ، ولا يطمئن أحد بأحد حتى أقرب الأقرباء إلى أقربهم . وقد راج سوق نقض العهود والخداع ضمن الانحطاط الأخلاقي الذي أصيب بـه الناس في هـذا العصر ، وقـد تفشّت صفة المجـاملة في الأخلاق العـامّـة ، بصـورة رهيبة .

أنّه يوجد في المجتمع أفراد لا ينظرون مواعيدهم باللاإعتنـاء واللاقيـديّة فحسب ، بل يعدّون الخداع نوعاً من الحذق والذكاء والفطنة ، ويباهون به على الآخرين .

إنّ الوفاء بالعهد من عوامل التّعايش الإجتماعي ، وهو من أركان سعـادة المجتمع ، وله الأثر الكبير في جميع شؤون حياة الناس ، وهو الأسـاس الذي يبتني عليه التقدّم والموفّقيّة والاطّراد .

أسر على عهد الحجّاج بن يوسف الثقفيّ جماعة من الخوارج وأتي بهم إلى الحجاج ، فاستعرضهم الحجّاج وأمر في كلّ واحد منهم بما شاء ، فلمّا بلغ إلى آخر رجل منهم ارتفع صوت المؤذّن للصلاة ، فتهيّا الحجّاج للصلاة ودفع الأسير إلى رجل من الأشراف كان معه في القصر وقال له أمسكه الليلة وأحضره غداً بين يديّ حتّى أرى فيه رأيي . فخرج الرجل بالأسير من القصر ، فقال له الأسير أنا لست من هؤلاء الخوارج ، وإنّي أرجو الله من لطفه ورحمته البراءة من هذه التهمة ، فإنّي قد وقعت بيدهم أسيراً بلا ذنب ، وإنّي أرجوك أن تأذن لي أن أقضي ليلتي هذه مع عائلتي وأولادي وأوصيهم بوصاياي ، وإنّي أعدك أن أحضر لديك صباح غد . فسكت الرجل ، ولكنه لمّا رأى إصرار الرجل والتماسه منه ذلك وافق على طلبه ، ولكنّه لم يمض شيء من الوقت حتّى اضطرب الرجـل وندم من ذلك وظنّ أنه سيقع ذلك عرضة لغضب الحجّاج . وأصبح الرجل في اضطراب عجيب ، ولكنّه ما أن حان المـوعد المقـرر حتى لاحظ بكل تعجّب حضور الرّجل الأسير على باب بيته . فلم يتمالك نفسه من الحيرة والعجب ، فـالتفت إلى الأسير وقـال له : ولمـاذا حضرت حين المـوعد ؟ وأجـاب الأسير قائلاً : من عرف الله بالعظمة والقدرة وأشهده على عهده وجب عليه الوفاء به .

ذهب الرجل والأسير معه إلى الحجاج وبيّن له ما جرى بينه وبين الأسير ، فتأثر الحجاج بإيمان الرجل ووفائه مع ما هو عليه من الشقاء والقساوة ، وصمّم على إصدار أمر بإطلاق سراحه ، فالتفت إلى الرجل المحافظ وقال له : أتحبّ أن أهب لك هذا الأسير ؟ فأجاب الرّجل : لو فعلت لمننت عليّ بذلك كثيراً . فوهب له الأسير ، وأخرجه الرجل معه من القصر وأطلقه .

افترضوا لو أنّ مؤسّسة تجاريّة استهانت بمسؤوليّتها ولم تعتن بمقرراتها فهل ينتهي تخلفاتها عن مواعيدها إلاّ إلى فقدان الثقة والاعتبار بين الناس وأنها ـ وقد توسّمت أخطاءها ـ لا تسير إلاّ في طريق الاضمحلال . ولا شيء يهب للمجتمع الثبات والاستقرار كالثقة المتبادلة بين أفراده ، ولا تستقرّ العلاقات المتبادلة بين الناس على أساس الثقة المتبادلة ولا تتجلّى روح الثقة المتبادلة ـ وهي من لوازم الحياة السعيدة ـ إلاّ فيما إذا اهتمّ كلّ أحد بقوله كما يهتمّ بالمكاتبات الرسميّة الحقوقيّة والقانونيّة الدوليّة ، وتقيّد في أعماله في جميع شؤون الحياة بحفظ العهود معتقداً أنّ ذلك من وظائفه القطعيّة ، فيسلّم البائع ـ مثلاً ـ البضاعة في الموعد المقرّر إلى المشتري ، ويؤدّي المدين دينه في موعده إلى الدّائن . . . وحينذاك ترتفع أكثر المشاجرات بين البشر ، ويترقّى مستوى الحياة بينهم إلى أرقى المستويات .

والشرط الأول في العهود أن ينظر الشخص إلى إمكانيّاته وقدراته ، فيحذر من عقد قرار خارج عن حدود قدراته وقواه ، إذ أنّه لو لم يتمكّن من تحقيق قراره حتى ولو كان ذلك بسبب عدم القدرة والاستطاعة عدّ مسؤولاً عن ذلك ، فهو بالطبع يجعل نفسه بذلك في معرض اللّوم والنّقد .

* * *

حرم الإسلام نقض العهود :

إنّ الإنسان بحاجة إلى أن يجعل سلوكه في الحياة سلوكاً عقلائيّاً كي يعدّ بذلك إنساناً عاقلاً عند الآخرين . وأنّ موفقيّة الجماعات الإنسانيّة رهينة ـ في الدرجة الأولى ـ باتحاد أفرادها ، ومن أجل ذلك يجب أن ينتظم سلوك كلّ إنسان وفق أصول الصدق والحقّ ، وأن يحذر بكل جهده عن كل ما يسبب

التفرقة والنفاق . وإذا كانت حرمة العهود عند الأفراد منبعثة عن أصول الإيمان والفضيلة الأخلاقية كانت أقوى وأدوم .

وقد ذمّ الإسلام نقض العهود إلى درجة أنه لم يرخص لأتباعه أن ينقضوا عهودهم حتى بالنسبة إلى عهودهم مع الفاسقين والفاجرين .

فقد قال الإمام الباقر (عليه السلام) : « ثلاث لم يجعل الله لأحد فيهن رخصة : أداء الأمانة إلى البر والفاجر ، والوفاء بالعهد للبر والفاجر ، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين »(١) .

ويصف القرآن أهل الايمان فيقول : ﴿ . . . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . . . ﴾(٢) .

ودعا المسلمين في موضع آخر إلى الوفاء بالعهد فقال : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان عنه مسؤولاً ﴾(٣) .

وقد عد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نقض العهد من علائم النفاق إذ قال : « أربع ، من كنّ فيه فهو منافق ، وإن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(٤) .

وكتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصاياه إلى مالك الأشتر (ره) :

« إياك والمن على رعيتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك ، وأن تعدهم فتتبع موعودك بخلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله وعند الناس ». قال الله سبحانه : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾(٥) .

---

(١) الكافي : ج ٢ ، ص ١٦٢ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٨ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤٤ .
(٤) بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٢٤٣ .
(٥) مستدرك الوسائل : ج ٢ ، ص ٨٥ .

وقال (عليه السلام) أيضاً : « أن الوفاء توأم الصدق ، وما أعرف جنة أوفى منه »[٦] .

لقد اهتم الإسلام بتربية الأولاد أهمية فائقة ، وبيّن للوالدين وظائفهم الأخلاقية بالنسبة إلى أولادهم بأوامر متينة وجامعة ، وما لم يعمل الوالدان وفق المبادىء الأخلاقية فلا يستطيعان أن يجعلا أولادهما متّصفين بالفضائل ، إذ أنّ أثر العمل أهمّ بكثير من القول ، ومن هنا نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أن يعد الرجل ولده ثم لا يفي له : « ولا يعد الرجل صبيه ثم لا يفي له »[٧] .

ويقول الدكتور الندي : « عهد إليّ للعلاج ولد في السادسة عشرة من عمره كان يرتكب كل يوم سرقة أكبر من سابقتها ، فتبين أنه لما كان في السابعة والثامنة من عمره كان قد أجبره والده يوماً على أن يقدّم إحدى لعبه لابنة الملاك الذي كان يعمل والده عنده ، في حين أنه إنما كان قد توفق لنيل أمنيته هذه بتركيز جميع طاقاته وقدراته ومساعيه في سلوك السبيل الذي كان يوصله إلى هذه الجائزة الثمينة لديه . وكان قد اتفق أن وعده أبوه بأن يشتري له لعبة أخرى مثلها ولكنه كان قد نسي أن يفي له بوعده هذا بالغفلة والمسامحة . فعمد الولد الآيس من وعد والده منكسر القلب إلى محفظة والدته وسرق منها شكولاته ، وفي اليوم الذي عهدوا به إلي كان قد كسر زجاج باب وسرق من البيت شيئاً ، ولم يكن إرشاد هذا الولد أمراً عسيراً عليّ وقد وفقت أنا لذلك . والذي كان قد أوصله إلى هذه الحالة إنما هو أبوه الذي كان قد صيره إلى هذه الحالة بعدد من الأخطاء النفسية التي كان قد ارتكبها في شأن ولده هذا . وكان من الممكن لو كان يستمرّ على ذلك الوضع أن يصبح مجرماً خطيراً في حين كان من الممكن أن يصبح يوماً ما رجلاً ذا إرادة عاقلة وقويّة »[٨] .

وقد بيّن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كيفية سلوك الإنسان مع أصدقائه إذ قال :

---

(٦) غرر الحكم : ص ٢٢٨ .

(٧) نهج الفصاحة : ص ٢٠١ .

(٨) عن الترجمة الفارسية : ما وفرزندان .

« إذا اتخذت وليّك فكن له عبداً ، وامنحه صدق الوفاء وحسن الصفاء »[٩] .

وإنما يليق بالمحبة والمعاشرة من كان ذا مزايا وصفات عالية وفضائل إنسانية ، يستطيع الشخص أن يجلي بمعاشرته روحه ونفسه : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أسعد الناس من خالط كرام الناس ، من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدّثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوّته » .

ويقول الدكتور صموئيل اسمايلز : « أنكم إذا عشتم مع الأشخاص أصحاب الأرواح العالية والأخلاق السامية تحسّون بقوة خفية تدعو أرواحكم وأخلاقكم إلى المجد والعلى . أنّ الصداقة مع الأشخاص أصحاب العقول الأقوى وذوي الفضل الأنبل وأولي التجربة الأكثر مما له ثمنه الغالي والنفيس جداً ، فإنّ مصاحبة أولئك الأفراد تهبنا روحاً جديداً وتعلمنا طرق الحياة وآدابها وتصلح أنظارنا وأفكارنا في الآخرين ، فإنهم إذا كانوا أقوى منّا في المعنويات والروحيات استفدنا بمجالستهم ومعاشرتهم قدرة أقوى في المعنويات ، فإنّ المعاشرة معهم تزيدنا معنوية وتسمو بأهدافنا في الحياة وتساعدنا على أعمالنا والخدمة للآخرين . إنّ معاشرة الطيبين تولّد فينا الخير والصلاح ، فإنّ الأخلاق الطيّبة كالنور يضيء ما حوله وينوّر كل ما يقرب منه »[١٠] .

وبإعادة النظر إلى هذه المواضيع السابقة يعرف كل إنسان وظيفته بالنسبة إلى العهود والإيمان .

---

(٩) غرر الحكم : ص ٢٢٣ .
(١٠) عن الترجمة الفارسية : أخلاق .

الخيانة

★ الوظائف العامة والثقة المتبادلة .
★ الخيانة ومفاسدها .
★ الدين يدين الخونة .

إن الثقة المتبادلة أساس لوجود مجتمع سالم ومتين ، وإنّما يعدّ المجتمع سعيداً فيما إذا استقرّت علاقاته على أسس الطمأنينة والاعتماد ، أمّا إذا خرج الناس عن حدود وظائفهم وأخذوا يخونون حقوق الآخرين فإنّهم سوف يبدأون بذلك السّلوك في قوس النزول في حياة مجتمعهم .

هناك أحكام مختلفة تحكم البشر في جميع شؤون الحياة ، ولكل إنسان نصيب منها ، قد كلّفه العقل والفطرة والدين بأداء نصيبه منها ، كي تتجلّى أنوار الثقة والطمأنينة في سماء حياتهم . وليس بإمكان أحد أن يحذف هذه التكاليف عن قاموس حياة الإنسان ، أو أن يغضّ النظر عما عليه من ديون لله أو للمجتمع ، أو أن ينظر إليها بسذاجة وبساطة من دون اهتمام بها ، أنّه لا مفرّ للإنسان ـ بحكم فطرته ـ عن التّعايش والمناسبات الاجتماعيّة ، وعلى أثر هذه الروابط بين الأفراد تنشأ حقوق لا بدّ لكل أحد فيها من اتّباع سلسلة من المقرّرات والقوانين ، صيانة للمجتمع عن المصادمات والاضطرابات ، ولكي يتمهّد بذلك طريق حلّ مشاكل الحياة في ظلال التعاون والاستمداد بمعاضدة الجميع . وأن العمل بالوظائف والتكاليف الاجتماعيّة وإن كان أمراً عسيراً يستلزم التضحية وتحمل المشاكل والمشاقّ والإنسان وإن كان بطبعه يحبّ أن يصل إلى السعادة والراحة والرّفاهية والهناء بدون تحمّل المشاقّ ، لكنه يجب

عليه أن يلتفت إلى أنّ السعادة لا يمكن أن تتحقق إلاّ في ظلّ العمل بالوظائف الإنسانيّة مهما كانت ، حتّى أنّهم قالوا : « إن السعادة مكافئة للعمل بالوظائف » . ومن الممكن أن يكون للشخص نصيب من مسؤولية الآخرين وذلك حيث يكون لتخلفه عن وظائفه أثر سيّىء في أفكار وعقائد الآخرين ، وهو بالطبع يؤثّر في سلوكهم وأعمالهم أيضاً .

أن سعادة المجتمع أثمن من سعادة الفرد بل هي أساس لسعادة الأفراد ومبدأ لها ، وأن التعديّ على حقوق المجتمع يضادّ روح العدالة الإجتماعية ويوجد خللاً في النظام العام . إن من وظائف كلّ فرد أن يحترم حياة وحرّية وشرف أبناء نوعه ، إن الذين يألفون رعاية التكاليف والوظائف فيؤدّون ما عليهم من دين لله أو للمجتمع بروح جادّة ، يضيفون بذلك على مستوى سعادة الآخرين ورفاههم في الحياة ويساعدونهم على تقدّمهم وتوفيقهم في الأمور بالإضافة إلى أنهم يحصلون بذلك على ثقة الناس بهم وانتصارهم بذلك في مسابقة الحياة .

ويقول في ذلك الدكتور صموئيل اسمايلز : « أن الوظائف ديون على عاتق الإنسان ، فمن أراد أن يكون على حذر من عار فقدان الاعتبار والانكسار الخلقي في الأنظار وجب عليه أن يؤدي دينه هذا ، ولا يتيسر أداؤه إلاّ بالسعي والجدّ والعمل الممتدّ في أمور الحياة . إن العمل بالوظائف والتكاليف عمدة ما يشغل حياة الإنسان من يوم وروده إلى هذه الحياة إلى يوم خروجه عنها ، فكلما كان لأحد من القوة والقدرة كان عليه من العمل بالوظيفة بمقدارها ، إذ أن مثل الإنسان في هذه الحياة كمثل عامل موظف بالسعي في إفادة نفسه والآخرين من أبناء نوعه ، وأن الإحساس بهذه المسؤولية يبني على إحساس حب العدالة ، من دون أن يكون هذا الإحساس تصوّراً عقائديّاً مفروضاً فحسب بل هو قاعدة أساسيّة لحياة الإنسان ، يظهر آثارهما في مظاهر إرادته من سلوكه وأعماله . إن الإحساس بالمسؤولية من أكبر مواهب الأمم في العالم ، وإنّما يؤمل تقدم أمّة يتصف أفرادها بهذه الروح السامية والشريفة ، أمّا إذا فقد هذا الإحساس من بين أفراد أمّة ما واستبدلت به صفة العجب والكبر والغرور والنفعية فإنّها ستكون أحق أمّة بالرثاء عليها ، إذ ستحكم عليها نواميس الطبيعة بالاضمحلال والانقراض عن

صفحة الحياة ، إن سريعاً أو بطيئاً .

***

الخيانة ومفاسدها :

لا ينكر أن هناك عللاً مختلفة لها الأثر الكامل في نفوذ الفساد والإنحراف العميق في مجتمعنا اليوم ، ولكنّنا حينما نفحص في سلسلة من البحوث الأخلاقية والمسائل ذات العلاقة بالنفس والمعنويات عن عوامل الإفلاس المعنوي والانحطاط الخلقي للمجتمع ، نتوجه إلى أن من أقوى عوامل هذا الإنحطاط والشقاء وهذه التعاسة هي سيادة الخيانة على الأفكار والعقول ، ونفوذها في جميع شؤون حياة الناس ، وأن الخطر الذي أصاب المجتمع من ناحية تفشي الخيانة وما تؤثره في الكيان المعنوي للمجتمع من الانهيار والتداعي لهو من أكبر الأخطار وأكثرها تأثيراً وأسفاً .

إن الخيانة تكدر روح الإنسان وتجرّ بأفكاره وعواطف إلى طرق الضلالة والضياع .

وإنما تنشأ هذه الصفة في وجود الإنسان من طغيان الشهوة وعتوها ، وحينئذ تحكم عليه أفكاره الشيطانية بقبول الذلة والدناءة ، بدلاً من أن يستوحي حينذاك من قوى عقله وإيمانه .

إن كل إنسان بحاجة إلى أن يحصل على ثقة الآخرين به ، وأن بإمكان العامل أو التاجر أن يربح من طريق الخيانة على اختلافها ويغطّي على فضائحه هذه بالدسائس والخداع والتزوير والدجل مدّة من الزمن ، ولكنه سيسقط الحجاب يوماً ما وحينئذ يفقد اعتباره عند الناس والذي كان أكبر رأسمال له في الحياة ، ويورد بذلك إهانة إلى شرف طبقته أيضاً .

إن الخائن خائف ، وهو يعاني بعمله هذا أنواعاً من القلق والإضطراب وينظر إلى كل شيء بنظرة سيّئة قاتمة ، وإذا أراد أن يعرف سبب ذلك فليس عليه إلّا أن يسأل نفسه عن ذلك ، حيث أنك إذا أمعنت النظر لا تجده إلّا أنه يستغيث من صفته الخبيثة .

إن من البديهي أن الرفاهية العامة والراحة الفكرية رهينتان بالأمن العام ،

وأن ما يسود الناس من فقدان الأمن والقلق القاتل بسبب تفشّي الخيانة في بيئة المجتمع مما يحكم على ملكة العدالة بالإعدام ، وهو يشكل إبادة وجود تلك الأمة . أجل إذا لم يأمن الإنسان على نفسه من الخيانة فلا حرية ولا أخوّة ولا إنسانية . ولا تنحصر الخيانة في أمور خاصة بل تشمل جميع أعمال الإنسان ، فإننا إذا حققنا أيّ قول أو فعل وجدنا له حدوداً دقيقة واضحة إذا انحرف الإنسان عنها قليلاً كان قد عبر حدود الأمانة العامة ودخل في طريق الخيانة والباطل .

جاء في مواعظ أحد الكبار لولده أنه قال له : « يا بنيّ كن فقيراً صفر اليدين ودع الناس يستغنون ويثرون بالخيانة والخداع وأنت تراهم . عش بلا مقام ولا جاه ودع الناس يصلون إلى المناصب العالية بالإلحاح والإصرار . إصبر على الألم والتعب والخيبة والحرمان ودع الناس يصلون إلى مقاصدهم وآمالهم بالتملّق والالتماس . أعرض عن مجالسة الكبراء الذين يتفانى الناس للتقرب إليهم . التحف لباس التقوى والفضائل حتّى إذا ابيض رأسك شيباً ولم يثبت على حجرك عار أسود ، فاشكر حينذاك ربّك واستسلم للموت بقلب سليم وخاطر مستبشر » .

إن الأمانة رأسمال الفتى في الحياة ، فإنّ الأمين يثق به جميع الناس ويطمئنّون إليه ويرجعون إليه معتمدين عليه ، وهو بذلك يعيش عيشة فاخرة نقيّة بيضاء ، إنّه يراعي جانب الأمانة في جميع شؤون الحياة فيستفيد سلوكه هذا من شتّى تجاربها في مختلف الأمور ، وبتجاربه هذه يتقدّم في سبيل الحياة آمناً سعيداً .

* * *

الدين يدين الخونة :

عبر الله تعالى عن مقرراته التي وضعها لعباده بعنوان الأمانة ، ونهى عن الخيانة بشدة في موارد متعددة من قرآنه الكريم ، منها قوله سبحانه عزّ من قائل : ﴿ **لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم** ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾(٢) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٥٨ .

وقال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : « غاية الخيانة خيانة الخل الودود ونقض العهود »[3] .

وقال (عليه السلام) أيضاً : « شرّ الناس من لا يعتقد الأمانة ولا يجتنب الخيانة »[4] .

وقال (عليه السلام) أيضاً : « إياك والخيانة فإنها شر معصية ، وأن الخائن لمعذب بالنار على خيانته »[5] .

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) كما قال أحد أصحابه : ما ودعنا قط إلا أوصانا بخصلتين يقول : « عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر فإنهما مفتاح الرزق »[6] .

إن الإسلام دعا الناس جميعاً إلى حياة سعيدة ومستقرة تحت ظل العمل بالوظائف المقررة في ضمن أوامره السامية ، وأوصى في ضمنها كثيراً بحفظ الأمانات وأدائها ، يقول الإمام السجّاد (عليه السلام) أيضاً : « عليكم بأداء الأمانة ، فوالذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق نبيّاً لو أن قاتل أبي الحسين بن علي ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه »[7] .

إن الخائن لا قيمة له في نظر الإسلام حتّى أنه حكم بقطع يد من يخون بأموال المسلمين طبق شرائط خاصة ، وهو يجري قانون العقوبات في حق الخونة بكل قسوة ليرعى بذلك حقوق المجتمع ويحفظ به الأمن العام ، وليحيي بذلك روح المسؤولية في المجتمع ، ولتتوفّر به الأرضية المساعدة لنشوء المجتمع الصالح .

إن كل عمل يخالف الحق يشتمل على آثار سيّئة لمرتكبيه وسيصابون بنتائجه في الدنيا قبل الآخرة ، بالإضافة إلى أنه يكون من عوامل سقوط

---

(٣) غرر الحكم : ص ٥٠٥ .
(٤) غرر الحكم : ص ٤٤٦ .
(٥) غرر الحكم : ص ١٥٠ .
(٦) سفينة البحار : ج ١ ، ص ٤١ .
(٧) أمالي الصدوق : ص ١٤٩ .

الإنسانية وانحطاطها .

يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من عمل سوءاً يجز به في الدنيا »[8] .

ويقول الدكتور روسكين : « أن كل عمل خطأ أرتكبه في حياتي سيقوم بوجهي فيسلبني سعادتي وهنائي ، ويخلّ بقوّة فهمي وإدراكي . والعكس صحيح أيضاً ، فإن أيّ سعي ظهر منّي وكل صدق وحق بدى من عملي أو فكري فإنه كان يصاحبني ويشوقني ويقويني في سبيل الوصول إلى المقاصد والآمال . إن القانون الميكانيكي الذي يقول : إن العكس وردّ الفعل يتساويان ، يصحّ في علم الأخلاق أيضاً ، فإن الأعمال الحسنة والسيّئة لها الأثر الإيجابي والسلبي أو الفعلي وردّ الفعلي في أصحابها ومن يتبعهم ويقلّدهم »[9] .

يقول مولى المتقين (عليه السلام) : « صحة الأمانة عنوان حسن المعتقد »[10] .

ويقول أيضاً : « الخيانة دليل على قلة الورع وعدم الديانة »[11] .

إن الإيمان سلاح الدفاع للروح ، وهو من أهم العوامل التي تستطيع أن تنفذ إلى أعماق روح الإنسان ، وهو ينظّم أعمال الإنسان وسلوكه بتنظيم دقيق . إن الإيمان يحيي في الإنسان حسّ المسؤولية الفردية والاجتماعية ، ويحذّره من التلوث بفساد المجتمع ، ويسوق المجتمع إلى الحق والصدق . ويسد سبيل المفاسد والخيانات . وهو يضع على الأبوين مسؤولية مهمّة في تأسيس أسس السعادة لأولادهم ، وأن يمعنوا النظر في أولى عادات أطفالهم ، وأن يسرجوا مصابيح الإيمان في قلوبهم ، وأن يقوّوا فيهم المزايا والصفات العالية .

يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) : « إنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة له على طاعته »[12] .

---

(٨) نهج الفصاحة : ص ٥٩٢ .
(٩) عن الترجمة الفارسية : أخلاق ساموئيل .
(١٠) غرر الحكم : ص ٤٥٣ .
(١١) غرر الحكم : ص ٥٣ .
(١٢) الوافي : كتاب الكفر والايمان ، ص ١٢٧ .

ويقول الدكتور ريموند بيج : « أنـه لا يكفي أن يراعى الـدين في البيت بصورة إجمالية ، كلاّ ، بل يجب على الوالدين أن يسلطوا أضواء من الإيمـان على جزئيات أعمالهم وسلوكهم وأحاسيسهم وعواطفهم . نزّهوا الدين لهم عن القيود المضافة إليه ثمّ قوموا بترسيخ أصوله ومبانيه المنجية والمتسامية في أعماق أرواحهم الطاهرة والطيبة المنتظرة لنصائحكم ومـواعظكم ، فـإن ذلك يحـافظ على اعتمـادهم وإيمـانهم في أدقّ مـراحـل الحيـاة ، وأن ذلـك سيمنعهم عن السقوط والانحراف والانحطاط »(١٣) .

وقال علي أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن بذوي العقول من الحاجة إلى الأدب كما يظمأ الزرع إلى المطر »(١٤) .

ويقول الدكتور ژيلبرت روبن : « قد لا يرضى البعض لو قلت أن الآداب في مثل المشي والتكلم تحصل للإنسان بصـورة طبيعية ، وبعبـارة أخرى ، أن ألفباء الحياة نتعلمها في أولى وظائفنا الاجتماعيـة ، وليعلم أن العقل ليس هـو الذي يساعد الإنسان على التأدّب بالآداب ، بل أن الآداب تحكم الإنسان قبل أن يتنبّه الفكر لذلك وقبل أن تبدو عـلائم التكامـل في العقل ، أيّ أن الآداب تحكم الإنسان قبل أن يوجد للإنسان فكر أو عقل . نعم إن الآداب لا تستمدّ من العقل ولكنها تستفيد منه ، ولهـذا فإنّي أتـألم حينما أسمـع أمّاً تقـول في أدب ولدها : أنه سوف يكبر ويفهم ، فإنه ما لم يتعود الطفل في صغره على الآداب لم يحصل عليه في الكبر بالعقل والفهم . نعم نستطيع أن نقول: أن الأدب هو العقل الفعال الذي يهدينا من الضلال ويفتتح لأعمالنا أقصر الطرق الصحيحة. وهو يبعدنا عن كل أنواع الركود والجمود. وهو كما يخالف الميول والشهـوات والعواطف المتطرفـة كذلـك يبعدنـا عن العداوة والبغضـاء والحقد والتنفـر عن الناس. وبكلمة أنه هو الذي يجعلنا اجتماعيين ويحذرنـا عن إهمال الآخـرين والاعتناء بأنفسنا خاصة. إن ذا الأدب لا يصبح وحده بل يكون عالمياً ومن ألسنة المجتمعات، وهو من دواعي يقظة الناس وانتباههم »(١٥) .

---

(١٣) عن الفارسية : ما وفرزندان ما .

(١٤) غرر الحكم : ص ٢٢٤ .

(١٥) عن الترجمة الفارسية : مجموعة چه ميدانم؟

أنه على الرغم من المساعي التي تبذل في وضع القوانين الشديدة للتقليل من جرائم الخيانة ، وما يبذلونه من يقظة وانتباه في تعديلهـا ، وما هنـالك من مؤسسات قضائية وتنفيذيّة واسعة ومجهزة تكافح عوامل الخيانة ، فقد باتت هذه كلها عقيمة لا تنتج كثيراً بل تتسع على رغمها دائرة الجرائم والجنايات يوماً بعد يوم بصورة مهولة وبشكل رهيب .

البخل

★ أثر التعاون والمساعدات .
★ البخل يسحق العواطف .
★ نظرة في كلمات القادة في البخل .

إنّ للإنسان بطبيعته استعدادات خاصّة ، ويحتاج كلّ إنسان في سبيل تكاملها ورشدها وإنتاجها إلى مساعدة وعون الآخرين . أنّ أصل التعاون عامل مؤثر في طريق التقدّم والموفقية للفرد والمجتمع .

إنّ الله خلق الإنسان للحياة الإجتماعية ، فهو بفطرته يحاول أن يشارك أبناء نوعه في حلّ مشاكل الحياة .

إنّ كلًّا من حوادث الحياة ومشتهيات نفس الإنسان تولد له عدداً من المشاكل ، وهو بذلك يكون عرضة في حياته لعدة من الحوادث المرة ، فهو في هذه الاضطرابات والبلايا لن يستغني عن الاستعانة بالآخرين . وعلى أساس هذا الناموس الضروري العام أصبحت التكاليف البشرية خارجة عن قدرة الفرد موزعة بين أفراد الطبقات المختلفة . وأن مساعدة الفرد مهما كانت من القلة والضعف فهي مفيدة لتقدّم المجتمع واطّراده ومكمّلة لجانب من حاجاته .

وحيث أن حالات المجتمع متجسّدة في الأفراد فبإمكاننا أن نشبّه المجتمع ببدن الإنسان من جهات عديدة ، فكما أنّ بدن الإنسان تركّب من أجزاء مختلفة بينها روابط طبيعية يرتبط بقاء الإنسان بأن يؤدّي كلّ عضو منها ما يخصّه من الفعالية في جهاز البدن ولا يتخطّى عن حدود وظائفه ، كذلك

المجتمع تشكّل من أجزاء هي أفراده ، وكذلك يستلزم بقاء المجتمع أن يعرف كل عضو من أعضائه وظائفه الأساسيّة الخطيرة فيقوم بأداء تلك التكاليف المعهودة إليه ، وأن يستغل ما يدّخره في وجوده من الذّخائر الماديّة والمعنويّة في سبيل إدارة أمور المجتمع وإصلاحها وإصلاحه ، في حدود مسؤوليّته والصّلاحيّة المحوّلة إليه بمقتضى فنّه ومهارته فيه واستعداده .

وإنّما يمكن تعميم الرفاهية للجميع وتأمين الرّاحة لهم والانتصار على العراقيل والعقبات في طريق الحياة فيما إذا كان إحساس الحاجة إلى التّعاون حاكماً على علاقات الناس بعضهم مع بعض ، فبالتّعاون تحلو الحياة وتثمر الأعمال وتدور عجلات عربة المجتمع في سبيل التّقدم .

***

البخل يسحق العواطف :

هناك أحاسيس لطيفة تنبع من أعماق روح الإنسان ولثمارها الثّمن الثمين ، عواطف تصبح منشأ لتعاونه ومساعدته لأبناء نوعه . إنّ هذه الأحاسيس التي تتجلّى في صورة مساعدة إلى معوز من أسمى المزايا الروحيّة والغرائز الطّيبة في الإنسان ، فإنّها هي التي تؤلم الإنسان وتؤثر فيه حينما يشاهد ألماً وشقاء وتعاسة في إنسان آخر مثله فتهيّؤه لكل أنواع التضحية والفداء ، وصرف النظر عن المنافع الشخصية في سبيل تقليل آلام الآخرين من دون أن ينتظر منهم أقلّ جزاء أو ثناء .

يقول الدكتور كارل : « أنّ التقدم في أيّ شيء في هذه الحياة بحاجة إلى نوع من التضحية والفداء ، فلا شيء يتقدّم في هذه الحياة إلاّ بالتّضحية وأنّ عظمة الرّوح وصفاءها وطهارتها أيضاً لا تحصل إلاّ بالتّضحية والفداء بالوجود والشهرة وكل شيء في الحياة ، وذلك من أجل حبّ الآخرين أو الوطن أو هدف أكبر . إن الفدائي جنديّ مقدام يتقدم بإرادته التضحية في مختلف ميادين الجهاد المهيب في هذه الحياة . إن روح التضحية هي التي تحمل (دنو كوشي) على أن يترك مكتب عيادته الشخصيّة بنيويورك وليذهب وحده إلى إفريقيا لمعالجة الحمّى الصفاء المتفشيّة هناك حتّى يقدّم نفسه أيضاً فداء لهذه

التّضحية . إنّ التضحية هي سيرة أولئك الذين أدركوا جمال الحقيقة وآمنوا بكلّ وجودهم بالله وحده ، فأولئك هم الذين يضحّون بأنفسهم في سبيل أن يحكم العدل والحب والوئام جميع العالم . إنّ الذي يبلغ بالإنسان إلى منتهى كماله هي العواطف والأحاسيس لا العقل وحده ، فإنّ النفس تسمو بالشوق والألم في سبيله أكثر ممّا تسمو بالتعقّل والتّفكير ، حتّى أنّها قد تسمو فوق العقل فتسبقه وتلتزم الاحساس والعطف المعقول ، ولكل أحد أن يتقدّم في هذا السّبيل الذي يعبر به ظلام الغيوم حتّى يصل به إلى قمّة الضياء والنّور » .

وقد تكمن في ضمير الإنسان ـ إن صحّ التّعبير ـ صفة تحرق جذور العواطف والوجدان ، وتهيّء طبعه للتخلّي عن كل الفضائل . إنّ (البخل) صفة ذميمة تلازم الإعراض عن جميع العهود الأخلاقيّة الوجدانيّة والإنسانيّة وتجعل الإنسان في معرض الذم والتّحقير والتّذمّر العام بالإضافة إلى أنّها تنتهي بصاحبها إلى ضيق في أفق العقل والفكر أيضاً ، فإن فكر البخيل بمقتضى بخله ولؤمه النافذ في أعماق روحه لا يطوف إلاّ حول المادة ولا يتركز إلاّ على نقطة الثّروة ، ولهذا فهو يحرم بذلك عن حريّة الفكر لدرك حقائق الحياة والقيم الأخلاقية والمعنوية . في حين أن الثروة ليست إلاّ وسيلة لتأمين حاجات الحياة وليست هدفاً فيها ، ولا أثر للثروة بعد تأمين الحاجات الأساسية في الراحة والرفاهية ، إذ أنها لا تتمكن بعد ذلك من معالجة الاضطرابات والآلام النفسية .

إن الاستيحاش من الفقر الموهوم آفة تلازم فكر البخيل ، فهو لا يتخلص أبداً من الغموم والهموم التي تظلل على نفسه من هذا السبيل ، فهو مع ما له من الثروة والذخيرة محروم من الراحة ، ولا أثر له من ثروته إلا المحنة والألم .

يقول العالم الانجليزي آويبوري : « يتمني الناس الثروة ولا يتمنون شيئاً سواها ، كأنّه ليس وراء الثروة شيء يليق بالتمنّي . هناك كثير من الناس لا يلتذّون بالعلم والمعرفة فهم يحرمون على أنفسهم الراحة وحتّى النّوم ليلاً ونهاراً سعياً لنيل المال . إنّ الذين يريدّون أن يعيشوا ليجمعوا الأموال يبتعدون عن الحقائق ، فهم كأنهم لا يعلمون أنّ الثروة وسيلة للّذة لا نفسها . إنّ المال جسر ينجينا من ورطة الهلاك والاستئصال ، فما أخسر أولئك الذين يصرفون أعمارهم في تحكيم الجسر نفسه . إنّه لا ينبغي أن نتلف أعمارنا في سبيل جمع المال ،

ينبغي أن نريد المال لأنفسنا لا أنفسنا للمال . إنّ الذين يركضون في صعيد الدنيا يفتّشون عن المال ليسوا في الحقيقة إلاّ أشقياء لا يستثمرون من ثرواتهم إلاّ التّعب والعناء ، يصرفون أعمارهم في كسب الأموال فيحتاجون إلى عمر ثان ليتمتّعوا بها ، ولكن هيهات فلا يرجع العمر المنصرم كما لا يرجع الكلام الملفوظ به » .

وكأنّما هناك بين الثروة والبخل بها رابطة مباشرة حيث نرى كثيراً من المتمكّنين في المال بخلاء بما لديهم . وبمطالعة قليلة في أمور المجتمعات يتضح لنا أن تأمين مصارف الفقراء وتفقّد أوضاع المحرومين لا يتحقق في الغالب إلاّ من الطبقة الوسطى لا العليا .

أن الأغنياء البخلاء الذين يقعون فريسة حقد الفقراء وعنادهم هم الذين يسبّبون بعض هذه المفاسد الاجتماعيّة ، فإن الضّغط على ما في نفس المحرومين من العقد النفسيّة والألم والعناء الذي يثقل كاهلهم هو من عوامل تفشّي الفساد وشيوع الانحرافات بمختلف أشكالها ، ولا أحد ينكر أثر هذه العقد الساخطة في تكثير الجرائم وأنواع الانحرافات . وكثير أولئك الأثرياء الذين خرجوا عن مدار الأخلاق والإنسانية على أثر ميلهم الشديد لجمع المال ، حتى أنّهم جعلوا يضيفون إلى ظلمهم ظلماً بسحق حقوق الفقراء بما أوتوا من حول وقوة ، كأنّما قد انطفأت فيهم مصابيح العواطف الإنسانيّة .

(إن الجود والسخاء) من عوامل رقي الإنسان ، وهو تعبير عن عمق العاطفة وغورها في الوجود الإنساني ، وهو سمة عن ثبات الفكر وعلو الهمّة وأحسن معرّف للإنسان الحق ، وللسّخاء صورة ممتازة بين سائر الصّفات الحميدة فها هو وجه (حاتم الطائي) بعد يتلألأ نوراً من وراء القرون من التاريخ المظلم يجلله البشر بجليل الذكر وجميل الثناء على إنسانيته وهمّته السامية .

ولا يخفى أن الجود والسخاء إنما يستحق الثناء والتقدير فيما لو كان التقرب إلى الله وتخفيف آلام المعذبين الهدف الوحيد للسخي الكريم ، ولم يكن فيه للرياء وطلب السمعة أي عين أو أثر .

* * *

نظرة في كلمات القادة في البخل :

أولى الإسلام إهتماماً كافياً بشؤون المجتمع البشري ، فأوصى بالبذل والعطاء كثيراً كي يحكم بذلك أسس المودّة والرحمة بين الأغنياء والفقراء ، وكذلك كرّه إلى الناس البخل واللؤم بشدّة متناهية .

إن الإسلام أقرّ وعمّق أصول المحبة والوداد في المجتمع المسلم بتربية العواطف الإنسانية وتقوية روح التعاون والمساعدة بينهم ، ولم يأذن لمسلم غني ثري أن يغفل عن أحوال الفقراء منهم ، أو أن يميل إلى جانب صفة اللؤم والخسّة ، إذ أن البخل واللؤم يمهّد لهم أن يبخلوا عمّا خصّص الإسلام من الحقوق في ثرواتهم للمحرومين من المسلمين .

يصرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة إذ يقول : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾[1] .

يجب على المسلمين أن يتقيدوا بأصول المودة والمحبة والمواساة وأن يشيدوا حياتهم على أساس العون والمساعدة بينهم ، وأن تزخر قلوبهم بالعواطف والإحساسات . وحيث أن البخل واللؤم يحطمان العواطف فقد حاربهما الإسلام بشدة ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« ما محق الإسلام محق الشح شيء »[2] .

إن البخل صفة ذميمة تسلب صاحبها راحته وهناءه وتجعل روحه في عذاب وألم .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أقل الناس راحة البخيل »[3] .

ويقول أحد علماء الغرب : « أن الشخص الذي يفقد المحبة وينشدها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٠ .
(٢) نهج الفصاحة : ص ٥٤٩ .
(٣) نفس المصدر : ص ٨١ .

ـ ولو لا شعورياً ـ يلوم نفسه غالباً ولا يرضى عنها . ولهذا ترى أكثرنا يتحسرون على حياة الآخرين ويشعرون ببخل شديد على غيرهم ، ولا ينحصر هذا في الفقراء بالنسبة إلى الأغنياء ولا العكس ، بل كل أحد منّا مهما كان من حيث الفقر أو الغنى حينما يشاهد حياة غيره يجد منها مستمسكاً يحسبه شاهداً على سعادته وبؤس نفسه ، مثلاً صاحب البيت والمقام والزوجة والأولاد والأعزاء يبخل بمثلها على غيره الذي ليس له من هذه الأمور بمقدار ما لهذا ويجد من ملابسه مثلاً شاهداً على أفضلية حالته على حال نفسه فيقول إن لم يك هو أسعد مني فلماذا يلبس ملابس أفضل وأجمل من ملابسي ؟ أو يقول : فلماذا بقي شاباً وأنا قد ظهرت في علائم الشيب ؟ وإذا لم يكن له أي شيء من هذا يحسده ويقول ما أسعده إذ لا يحيط به ما يحيط بي من ثقل العيال والأولاد والأملاك والمقام ومشاكلها ، وهكذا يضع فاقد المحبة وناشدها لنفسه من هذه الأمور مستمسكاً يحسبه دليلاً على بؤسه وسعادة الآخرين ، وهكذا يلوم نفسه وحظّه ويحقرها ويتألم من حقارتها الموهومة ، ويحسد الآخرين ويبخل عليهم بشرفهم »[٤] .

ويسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ربه الرحمة لأولئك الذين لا يحبون المال للمال بل ينفقون ما زاد عن حاجاتهم إلى المعوزين إذ يقول : « رحم الله امرءاً أمسك الفضل من قوله ، وأنفق الفضل من ماله »[٥] .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً : « اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم »[٦] .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « عجبت للشقي البخيل يتعجل الفقر الذي منه هرب ، ويفوته الغنى الذي إياه طلب ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء »[٧] .

ويقول العالم الانجليزي آويبوري : «بعض الناس أثرياء في الظاهر فقراء

---

(٤) عن الفارسية : روانكاوي .
(٥) نهج الفصاحة : ص ٨١ .
(٦) نهج الفصاحة : ص ٨ .
(٧) غرر الحكم : ص ٤٩٧ .

في الـواقع ، يملكـون أمـوالاً ولا يتمكنـون من صـرفهـا حتى على أنفسهم . أصبحت أمـوالهم كسلسلة من الذهب في رقـابهم ولا يحصلون منهـا إلاّ على العـذاب والألم والتعب والعنـاء . وهنـا يصبـح المـال وبـالاً والثـروة نكبـة ونكسة »[٨] .

إن البخـل صفة ذميمـة من يصاب بهـا يتذمـر منه حتى أولاده كمـا قـال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « جود الرجل يحببه إلى أضداده ، وبخله يبغضه إلى أولاده »[٩] .

وقـال (عليه السـلام) أيضـاً : « على الشـك وقلّة الثقـة مبنى الحـرص والبخل »[١٠] .

ويقول الدكتور فارمر : « إنّ صفتي السّخاء والثقة بالنفس النـاشئتين من الإطمئنـان والإعتماد على النفس والغيـر ، حينمـا تتحـدان تكمـلان الأخـلاق الاجتماعية وتوجبان التمتع الكامل بالحيـاة الإجتماعيـة واللذة منها ، والعكس صحيح أيضاً ، فما لم تتحد هاتان الصفتان لا تكتمل فينا الأخلاق الإجتمـاعية ولا نتمتع من المجتمع تمتعاً كاملًا »[١١] .

ويشرح لنا الإمام موسى بن جعفر (عليهما السـلام) قيمة صفـة السخاء فيقول :

« السخي الحسن الخلق في كنف الله لا يستخلي الله منـه حتى يـدخله الجنـة ، وما بعث الله عـزّ وجل نبيّـاً ولا وصيّاً إلاّ سخيّـاً ، ومـا كـان أحـد من الصالحين إلا سخيّاً . وما زال أبي يوصيني بالسخاء حتى مضى »[١٢] .

بينما كان علي (عليه السلام) يحارب في ساحـة الجهاد ، بـارزه رجل وسأله سيفه ، فناوله علي (عليه السـلام) سيفه فـوراً فتعجب الرجـل من علوّ

---

(٨) عن الترجمة الفارسية : درآغوش خوشبختي .
(٩) غرر الحكم : ص ٣٦٨ .
(١٠) غرر الحكم : ص ٤٨٨ .
(١١) عن الفارسية : راز خوشبختي .
(١٢) الفروع من الكافي : ج ٤ ، ص ٣٨ .

همته (عليه السلام) وقال له :

« إن البخيل بحاجة ماسة إلى هداية فكرية ، وإذا حرم منها فإنه سيبقى في حضيض المادية والتعاسة والبؤس والشقاء .

الحرص

★ نظرة في حوائج الحياة .
★ لا يشبع الحريص حتى بجميع نعم الحياة .
★ نظرية التوازن في نظام الإسلام .

يحيط بوجود الإنسان في هذه الحياة من أوّل يوم قدم إليها حوائج تحاصره حصراً شديداً ، فبعضها من ضرورات الحياة البدائية التي يتوقّف عليها حفظ نظام حياة الإنسان وبقاؤه كالطّعام واللباس والمسكن ، فهي من الحوائج الطّبيعية التي لا يمكن سدّها سدّاً نهائياً . والقسم الآخر منها حاجات غير ضرورية ، فهي دائماً في طور التحول والتغيير . وهي حاجات وسيعة لا تحد بحدّ ولا يقدر أحد أن ينالها جميعاً بل أن منالها ليس في الحقيقة إلاّ أحلاماً شائقة .

وكل إنسان يسعى وفق دوافعه الطبيعية وإحساسه بالحاجة وراء تحصيل المال ، ويكافح بما أوتي من استعداد مع مشاكل الحياة وعقباتها وعراقيلها في سبيل ذلك ، وذلك إذ أنّ المال قوام الحياة وبهاؤها ورونقها وجمالها وزينتها .

ومن الطبيعي أن يختلف أحوال أفراد الإنسان في هذا السبيل ، فإن ضاق به العيش وإحاطته الحياة بمواصفات الفقر الفاقرة أحسّ بالذل والضعف والهوان وأخذ يجول في طلب رزقه هنا وهناك متوسّلاً بكل وسيلة لرفع الفقر عن نفسه . وإذا أصاب غنى كان معه الكبر ولوث العتوّ والطغيان كأنّما بينهما نوع علاقة أو رابطة خاصة ، فإذا ما وقع بيد الإنسان ثروة هائلة معها جميع وسائل الحياة

الميسّرة سكر بسكر الغرور والنخوة ووسوست في فكره أهواء لا نهاية لها .

لحياة البشر أشكال مختلفة ينظر إليها كل إنسان بنظرة خاصة ، إذ لا يتشابه المستوى الفكري والعقلي لجميع الناس ، فهناك جماعات كثيرة من البشر لم يصلوا بعد إلى مرحلة من الكمال يدركون بها حقيقة الحياة ويميّزون منها بين مناطق السّلامة والنجاة ومناطق الخطر ، إن درك حقائق الحياة والعروج إلى مقام السعادة يستلزم دقة في أسرار الوجود ، وبالأخص منها (معرفة النفس) ولا يمكن ذلك إلاّ في نطاق العقل والمنطق لا غير .

يجب على الإنسان أن يعلم لماذا جاء إلى سوق الحياة هذه ، كي يبدأ بمقتضى هذه المعرفة سعيه في سبيل السعادة ويختار طريق التقدم وفق حوائجه الروحيّة والطبيعية ، ويحترز عن العيوب التي تباين تكامل الروح ونمو الشخصية الواقعية .

وليس الفلاح والنجاح والسّعادة أن يسبق الإنسان الآخرين في سبيل الاستفادة من الأمور المادية ويطرد في ذلك إلى الأمام دائماً ، فإنّ الأمور المادية ليست القطب الأساس لهذه الحياة ، ولا ينبغي أن يتجاوز الإنسان لنيلها حدود الفضيلة والتقوى ويهمل شروط الإنسانية في بوتقة النسيان .

يقول الدكتور كارل : « في المحيط الفكري الذي أوجدته الماديّة الليبرالية أخذ الفكر النّفعي بمجامع شعورنا وأفكارنا جميعاً ، وتجلّت الثّروة في نظرنا أكبر موهبة من مواهب الحياة ، وأصبح التّوفيق في الحياة يقاس بمقاييس الأوراق النقدية ، وقد سرت فكرة المنافع المادية من البنك والصناعة والتجارة إلى جميع مجالات المساعي البشرية ، وأصبح الذي يدفعنا في أعمالنا هو التوصل إلى تقدم شخصي وفي مقدمته الأمور المالية . إن المجتمع الذي يرى الأولويّة للأمور الاقتصادية لا يميل إلى الفضيلة أبداً ، إذ أن الفضيلة تتطلّب إطاعة قوانين الحياة ، وحينما يخصص الشخص مساعيه في الأمور الاقتصادية فلا يتّبع حتى القوانين الطبيعية للحياة . إن الفضيلة توصلنا إلى الحقيقة من دون أن يكون في هذا كلمة جزاف ، وتنظّم جميع فعالياتنا الجسمية والنفسية وفق نظام الجهاز الانساني . إن صاحب الفضيلة الأخلاقية يشبه المحركات القويّة التي تعمل بانتظام ، وأن الاختلالات والاضطرابات في المجتمع اليوم ليست

إلّا من آثار فقدان الفضيلة الأخلاقية » .

إن الحصول على المعنوية هو الهدف الأصيل في الحياة وهو أهم وأثمن ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان ، وأن الذي تخزن نفسه من الثّروات المعنوية لا يحسّ بالحاجة إلى هذه الدنيا إلّا قليلاً ، فإنه يحصل في ظلال معنوياته على غنى النفس الذي يرافقه مدى الحياة ، ولا يعوّض مثل هذا الشخص ما لديه من الثروة بثروة المال والجمال والجلال المادي أبداً .

***

الحريص لا يشبع حتى بجميع نعم الحياة :

إن الحرص حالة نفسيّة تدفع بصاحبها إلى التجسّس عن الثروة والمنافع المادية ، بحيث تصبح الأمور المالية لديه كقطب يدور عليه رحى أفكاره ومساعيه .

إن هذا الميل الماديّ المشؤوم ينشأ من قوّة الشهود ، وهو يعدّ من عوامل شقاء الإنسان وبؤسه ، فهو يبعثه على أن يتوهّم لنفسه سعادة خياليّة تجذب انتباهه فهو يتقيّد لذلك بحب المال حتى ينسى كل شيء في سبيله بل حتى يضحّي في سبيله بالفضائل الأخلاقيّة والقواعد الإنسانية . وهو في كل ذلك يتعمّق في روحه إحساس الحاجة أكثر فأكثر .

يقول الدكتور شوبنهاور : « أنّه لمن العسير أن نحدّد الميول التي يرتبط الحصول عليها بصرف الأموال الطّائلة ، فإنّ قناعة الأفراد ليس على حدّ سواء ، وليس لهوى الناس ميزان ثابت ، فإنّهم مختلفون في حرصهم في الحياة عليها ، فبعضهم يرضى ويفرح بمال قليل يؤمّن له وسائل الحياة الضرورية ، في حين نرى أن هناك أناساً لهم الأموال الكثيرة الطّائلة الزائدة عن حوائجهم وهم مع ذلك يشكون الشّقاء والتّعاسة ، إذ لم تقض حوائجهم وميولهم ـ على الأصح ـ كما يشتهون . إذن فلكل شخص حدود خاصّة في ميوله ومناه ، وإذا اطمأنّ إلى قضاء آماله إلى حدودها المحدودة له فسوف يشعر بالرّضى والفرح ، ولكنه إذا شاهد في سبيل وصوله إلى آماله عقبات يئس وتألّم . إن الثروة الطّائلة للأغنياء لا تخدع الفقراء في حين لا يرضى ولا يقنع الغني بما له من مال وثروة أبداً فهو

يحاول الوصول إلى مال آخر دائماً . إن مثل الأموال كمثل ماء مالح كلما شرب الإنسان منه أكثر أحسّ بالعطش في نفسه أكثر فأكثر » .

نعم إن الحريص لا يشبع حتى بنعم جميع العالم ، كما أن النّار لا تشبع من الوقود مهما أوتيت منه ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾؟

إن الحرص إذا استولى على أمّة بدّل حياتها الاجتماعيّة إلى معترك نزاع وصراع وتنازع عوضاً عن العدل والأمان والثّبات والاستقرار ، وحدث اصطدام شديد بين مصالح أفرادها ، ومن البديهي أنه لا يمكن حينئذ إشاعة الأخلاق والمعنويات بينهم .

ويجب الانتباه إلى حقيقة هنا وهي أن هناك بين عبادة المال وحب التقدم ـ حتى الماديّ ـ في الحياة فرقاً أساسياً ، ولهذا فإنه يجب أن يفصل بين هذين الأمرين بخطّ يفصل بين حساب كل واحد منهما عن الآخر ، إذ أنه لا مانع في مسير المجتمعات البشرية يمنع الإنسان عن التقدم والاطّراد بل ينبغي له أن يتقدّم في ظلّ مدركاته الفطرية واستعداداته الذاتيّة كالبرق لا يمنعه مانع .

إن مساعي الطّامعين الحريصين تولّد للمجتمع سلسلة من التّعاسة والخيبة فإنّهم من دون أن يتبعوا أصول العدل يريدون أن يؤمّنوا لأنفسهم ما يحتاجون إليه ولو كان ذلك بإيجاد الفقر المهلك للآخرين ، ولهذا فهم يقبضون على جميع منابع الثروة كي يحصلوا على نفع أكثر فأكثر ، وهم بذلك يشكلون أقوى العوامل في إيجاد الأزمات الاقتصادية الشديدة والفقر العام العالمي .

إن الناس يزعمون أن الثروة منبع لكثير من الأعمال فهم يولونها الاهتمام الأكبر ، في حين أن الفقراء هم الذين عملوا أكبر الأعمال وأعظمها في تاريخ العالم ، فإنّ أكثر الرجال الكبار من المصنّفين وأصحاب الاختراع قد قاموا من بين الفقراء .

إن توسّع الثروة مضر بالنسبة إلى كثير من الناس . فإنّها ستلوّثهم بالرّذائل التي تلازم الثروة ، إن بعض الشباب إذا حصل على الثروة من طريق الإرث تضعف فيه الهمة ويعدم السعي ويفقد الفعالية اللازمة ، فإنّه لا يجد دافعاً له إلى السعي والعمل ، وبإمكان هذه الثروة أن تجرّه إلى سبل المعاصي فيصرف عمره

في اللهو واللعب معرضاً عن العلم والأدب .

زار أحد المعارف يوماً ابيكتتوس الفيلسوف اليوناني الشهير ، وحيث لم يكن الثاني يثق بصدق نيّة تلك الشخصية الثريّة استقبله استقبالاً عادياً بارداً ، ثم قال له أنّك لم تأتني لتتعرف على القواعد والأصول العلمية عندي بل أتيتني لتتقصني على حالتي المالية ، أليس هكذا ؟ فقال الرّجل أنا إن أردت أن أسلك ما سلكت من طلب العلوم كما تقول أصبحت مثلك فقيراً لا أملك ذهباً ولا فضّة ولا داراً ولا عقاراً ولا خدماً ولا أحشاماً فأجابه الفيلسوف : وأنا لا أريد أن أملك ما أنت تملك من هذه الأمور ، فإنك أنت ـ مع ما بي من الفقر الظاهر ـ أفقر منّي والفرق بيني وبينك أني لا أحتاج إلى نعم وخدم يحمونني ويدافعون عنّي وأنت على عكس ذلك تحتاج إليها ، إذن فأنا أغنى منك أنا لا أبالي أن يكون (قيصر) يفكّر فيّ خيراً أو شرّاً ، ولذلك فلست بصدد مداهنته أو التملّق والالتماس منه . أنا عندي عوض الذّهب والفضّة غنى النفس واستقلال العقل وحريّة الفكر ، وأنت تفكّر في أواني الذهب والفضّة والخزف إن أفكاري عندي دولة واسعة الأرجاء أصرف فيها عمري بكل فرح وسرور ، وأنت تصرف عمرك بالبطالة والقلق والاضطراب . إن جميع ما تملكه عندي قليل ، وما أملكه أنا هو الكثير ، إذ أنّك لا تقضي جميع حوائجك وآمالك ومناك وشهواتك ، وأما أنا فتقضى لي جميع حوائجي وأبلغ بعقلي جميع آمالي وأدرك مناي » .

أجل اعتمد العلم ولا تعتمد على الذهب والفضّة ، فإنّما يعتمد عليها الجاهل .

ولا شك أن الفرح والتّرح قد اقتسم كل واحد منهما الحياة فأخذ كل منهما لنفسه قسماً منها ، فكل من يأتي إلى هذا الوجود يكون له بحسب حاله نصيب منهما سواء كان غنيّاً أو فقيراً . ولكن نستطيع أن نقول أن الثروة التي تتجاوز حدود حاجات الإنسان لا تؤثّر في سعادته . فقد قال سقراط الحكيم : « هناك بعض الناس لا مال لهم ولا جواهر ولا ملابس فاخرة ولا قصور ، ومع ذلك يعيشون الحياة أسعد وأهنأ من الأثرياء بألف مرّة .

إن الحريض عبد ذليل خاضع فقير مسكين مستكين للدنيا وأموالها ، قد قيّد رقبته بسلسلة من ثرائها واستسلم لأفكاره غير الناضجة فيها فهو يتصوّر أن

هذه الثروة الطّائلة التي تشبع ذريته من بعده ليست إلاّ ذخيرة احتياطية ليومه الأسود ولكنه لا يقف على خطئه في فكرته هذه إلاّ حينما تدنو ساعة الأجل فتدق له أجراس الخطر وتعلن له نهاية دقائق عمره وثوانيها :

« دقّات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثواني »

وحينذاك ينظر إلى ذخائره التي صرف في سبيل الحصول عليها عمراً بالمشقة والألم ، ينظر إليها باليأس والخيبة ، ثمّ يحمل حسراته هذه وآماله وآلامه وأحلامه معه إلى قبره نادماً على ما فرّط وأفرط ، ولات حين مندم ولا ينفعه الندم .

* * *

نظرية التوازن في نظام الاسلام :

ضمّن الإسلام دعوته الناس وترغيبهم إلى الجد والسعي في الحياة : ﴿ وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ﴾[1] تحذيراً شديداً عن عقد القلب على العلائق الماديّة ، ووصفها بأنّها تحرم الإنسان عن الهدف الحق في الحياة والسعادة الأبدية . وقد مثّل الإمام الباقر (عليه السلام) حقيقة حياة الحريص تمثيلاً جميلاً إذ قال : « مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز ، كلما ازدادت من القز على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً »[2] .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[3] .

وأشار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى البؤس الناتج من الحرص فقال : « اتقوا الحرص ، فإن مصاحبه رهين ذل وعناء »[4] .

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢ .
(٢) أصول الكافي : ج ٢، باب ـ حب الدنيا ـ.
(٣) نهج الفصاحة: ص ١٩٩ .
(٤) غرر الحكم: ص ١٣٥ .

ويقول الدكتور ماردن : ليست الثروة كل شيء في حياة الإنسان ، وكذلك ليست سعادته الواقعيّة في جمع الأموال . ولكن كثيراً من الشباب يقعون في هذا الخطأ فيعتقدون أن المال أهمّ شيء في حياة الإنسان ، ولذلك فهم يصرفون أعزّ أيامهم في سبيل تحصيله ويحرمون أنفسهم من كل شيء آخر في سبيله . إن هذه الفكرة خاطئة جداً ، وهي السبب في بؤس أكثر الناس إننا نسعى في سبيل الحصول على القصور الضخمة والسيارات والأملاك والملابس الفاخرة ووسائل الترفيه والسرور ، ونظنّ أنها هي الوسيلة للوصول إلى السعادة ، في حين أنها توجب لنا الخيبة والحرمان .

إنه لمن الخطأ بمكان أن يعيش الانسان في هذه الحياة لا لشيء إلا لجمع المال وأن يجعله إلهه المعبود فيعبد الذهب والفضّة كما عبدها بنو إسرائيل : « أننا إن بقينا على تصورنا هذا الباطل وزعمنا أن إلهنا القديم (المال) هو السبيل الوحيد إلى سعادتنا ، فلنصدّق أننا نكون بذلك قد ضللنا عن السبيل الأقوم وابتعدنا عن الصراط الأعظم الموصل إلى السعادة والتوفيق الأبديين »(٥) .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الحريص أسير مهانة لا يفك أسره »(٦) .

إن هذا الدين الحنيف المنسجم مع فطرة الإنسان قرر التوازن بين جانبيه المادّي والمعنوي ، واختار بذلك لأتباعه طريقاً يضمن لهم السعادة الجسدية والنفسية معاً . وأن المتدينين بحكم التفاتهم إلى الحقائق الأسمى في الحياة يصبحون ذوي نفوس مستقيمة حكيمة ، فمتى ما تأخّروا عن قافلة التقدم الماديّ بسبب فقدانهم بعض الشرائط اللازمة جبروا تأخّرهم الماديّ هذا بذخائرهم الروحية والمعنويّة النفسية والأخلاقية السامية ، فلم يجزعوا بانتكاسات الحياة بل صبروا عليها واطمأنّوا بفضل قوة إيمانهم وعقيدتهم : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٧) .

---

(٥) عن الفارسية : خويشتن سازي .
(٦) غرر الحكم : ص ٥٠ .
(٧) سورة الرعد ، الآية : ٢٨ .

إن القناعة كنز لا يفنى ، فصاحبها يسعى بمقدار ما يؤمن به مصارف حياته وحاجاته الأصيلة ، وينظم بفضل عقله وتدبيره أمور حياته ويعدلها ، ولا يلوث سعادته النفسية بالسعيّ الباطل وراء النعيم الزائد الزّائل ، بل يرضى بما تناله يده من الطرق المشروعة فحسب . وهذه الطريقة المعقولة تمنحه الفرصة الكافية للسعي في سبيل الوصول إلى الهدف الأسمى في الحياة والاستفادة من الفضائل الإنسانية . إن القنوع سيبلغ بقناعته أغنى الغنى ـ غنى النفس ـ فإنه برضا خاطره يشعر بالاستغناء عمّا في أيدي الناس ، وأن هذه لهي الثروة الحقيقية . وقد ذكرنا أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) بهذا المعنى ببيان جميل إذ قال : « إن أكيس الكيس من اقتنى اليأس ولزم القنوع والورع ، ويبرىء من الحرص والطمع . فإن الطمع والحرص الفقر الحاضر وأن اليأس والقناعة الغنى الظاهر »[8] .

وقال (عليه السلام) ـ وهو يشير إلى الأمراض النفسية والروحية التي تصيب الحريص ـ : « كل شره معنى »[9] .

ويقول الدكتور ماردن : « هناك أفكار تنشأ من الحرص والطمع وسائر الانفعالات والتأثرات النفسية ، وهي لا تؤثّر في الجسم فحسب ، بل تسري إلى النفس فتسقمها ، وتحرمنا بذلك عن الحياة الطيّبة ، بل تغيّر مجرى حياتنا الآمنة المطمئنّة ، وتحطم فينا أحسن صفات الطبيعة البشرية »[10] .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الشره يشين النفس ويفسد الدين ويزري بالفتوّة »[11] .

وقد بيّن لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البلايا والبأساء الناشئة عن الحرص فقال :

« الحريص بين سبع آفات صعبة فكر يضر بدنه ولا ينفعه ، وهم لا يتم

---

(٨) غرر الحكم : ص ٢٥٥ .
(٩) نفس المصدر: ص ٥٤٤.
(١٠) عن الفارسية : پيروزي فكر.
(١١) غرر الحكم : ص ٧٧.

أقصاه ، وتعب لا يستريح منه إلا عند الموت ويكـون عند الـراحة أشـد تعباً ، وخوف لا يورثه إلا الوقوع فيه ، وحزن قد كدر عليه عيشه بلا فائدة ، وحساب لا يخلصه من عذاب الله إلا أن يعفو الله عنه ، وعقاب لا مفرّ له ولا حيلة »[١٢] .

إن الحرص شهوة مشؤومة تجرّ الإنسان إلى الدناءة والرذيلة .

قال علي (عليه السلام) : « الشره داعية الشر »[١٣] .

وقال (عليه السلام) أيضاً : « ثمرة الشره التهجم على العيوب »[١٤]

ويقول الدكتور شان ماركوهست : « أن السرقة تنشأ من الحرص ، فـإن السرّاق إنما يسرقون ما ليس عندهم فهم يحرصون على امتلاكه ، فالذي يسرق جورباً من الباعة في السوق ، أو دراجة أودعت عنده أمانة ، لا يفعل ذلـك إلاّ متأثراً بحرصه على امتلاك هذه الأشياء ، فالدافع له على السرقـة إذن ليس إلاّ الحرص »[١٥] .

وحينئذ نصل إلى هذه النتيجة وهي أن الحـرص ـ وهو المـرض الروحي الخطير ـ لا علاج له إلاّ في ظلّ الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإنه لا يحصل رضا النفس وقنـاعتها واطمئنـانها إلاّ بتقـوية الـروح المعنويـة والأخلاقيـة في النفس فحسب .

---

(١٢) مستدرك الوسائل : ج ٢ ، ص ٤٣٥ .
(١٣) غرر الحكم : ص ١٦ .
(١٤) نفس المصدر : ص ٣٦٠ .
(١٥) عن الفارسية : مجموعة چه ميدانم؟ .

المجادلة

★ العجب المفرط .
★ ما الذي نحصل عليه من الجدل ؟
★ لننظر إلى كلمات من القادة .

إن (حب الدنيا) من الغرائز الأساسية في الإنسان وخصائصه الذاتية التي غرست في وجوده من أول يوم ، وهي التي تدفعه إلى السعي الدائم في الحياة وتجعله يحافظ على نفسه وإن كان يتمنى الموت ، وعلى أثر وجود هذه الغريزة نرى البشر يفرّ ممّا يضرّه إلى ما يحكم ثباته وحياته . ولذلك فهو في شطر كبير من تقدمه وتكامله وتعاليه رهين لهذه الظاهرة الروحية التي لها الأثر القاطع في نظام الحياة وتقدم مستوى الحضارة البشرية .

ولكن السعادة البشريّة إنما تتم فيما إذا كان الإنسان في العمل بها وتركها بعيداً عن التفريط أو الإفراط ، بعيداً عن عبودية غرائزه . وعلى هذا فلكي تشبع هذه الغريزة إشباعاً صحيحاً ينمو في ظلها سائر الملكات الحميدة والسجايا الأخلاقية يجب أن تعدل في معمل العقل ، فإن العقل هو الهادي للإنسان لا الغرائز ، فالعقل هو الذي يعقل الغرائز المفرطة عن إفراطها وتعدّيها وتجاوزها عن حدّها ، وهو الذي يهدي الغرائز عن طغيانها المدمّر ، وهو الذي يواجهنا بحقائق الخطأ والصواب . إن قوّة العقل التي لها الوظيفة الكبرى في بناء شخصية الإنسان هي التي تصلح هذه النقطة المنحرفة الغريزية في وجودنا ، وتهب لذلك بصيرتنا الكامنة قوة كافية .

إن غـريـزة (حبّ الـذات) إذا خـرجت عن الاعتـدال وسلكت جـانب الإفراط أصابت بخروجها هذا عن اعتدالها جهاز العقل الإنساني في الصميم ، فمنعتـه عن درك واقعيات الحيـاة وأن الذين يصـابون بهـذه التحريفـة النفسيـة فيسعون جاهدين في قضاء حوائجها كمـا تهوى سيقعـون في حضيض الضلال والضياع والفساد والشقاء في النهاية . وأن ما يقال في هذه الغـريزة من السوء فإنّما هو على الجانب الإفراطي منها ، وليس الهدف من ذمّ هذه الغريزة إلاّ ما لم يعدله منها العقل بأحكامه العادلة .

إن انحطاط الأفراد ورقيّهم يرتبط بمكانتهم الروحية وأخلاقياتهم ارتباطاً مباشراً ، والرذائل الأخلاقية منتشرة في شتى مراحل الحياة بـأشكال مختلفـة ، ينشأ كثير منها من مشاكل الحياة عن ميولنا الخاطئة غير المعتدلة .

إن ما مكّن فيه الإنسان لكثير جـدّاً ، ولكلّ إنسـان أرضية مسـاعدة على اتّباع عواطفه المعقولة الأصيلة ، ولكن لا شيء للإنسان أهمّ ولا أثقل من تعديل أحاسيسه وعـواطفه وغـرائزه ، ومنهـا ـ وعلى الخصوص ـ غـريزة حبّ الـذات والعجب والكبر والغرور .

وعلى هذا فيجب علينا أن نصـرف أكثر مسـاعينا في سبيـل تعديـل هذه الخصيصة الذاتية ، إذ لو أهملناها بلا حدّ محدود ولا قيد ممدود عجزنا عن أيّ تقدم في طريق التخلّق بالأخلاق الحميدة ، وبدون تـنظيم للنفس الإنسانيـة لا يمكننا أن نعيش عيشة راضية مرضية محمودة .

* * *

ما الذي نحصل عليه من الجدل ؟ :

إن المـوفقية في الأخـلاق وفي المجتمع تـرتبط بأصـول يجب علينـا أن نعرفها وننظم سلوكنا على طبقها ، إذ أن دور الإنسان في عـلاقاتـه مع النـاس ومعرفته لحدود وظائفه ومسؤوليّاته من المسائل التي يرتبط بها سعادته وشقاوتـه بمقياس دقيق وشامل .

إن حبّ الائتـلاف والارتبـاط بـالآخرين ممّـا غـرس في أعمـاق أرواح الناس ، فكل منهم يحب المحبّة والوئام ويستوحش من وحشـة سجن الوحـدة

والغربة ، ولكن ما لم يبلغ كل واحد منهم إلى السلام النفسي والصلح الروحيّ لا يمكنه التعايش السلميّ مع الآخرين ، بل حتى مع نفسه فضلاً من غيره . إن السلام والوئام والتعاون أساس يبتني عليه جميع أنواع النشاط الاجتماعي السليم ، وأن رعاية حدود الآخرين واحتراماتهم وأحاسيسهم لهو الشّرط الأول في فنّ المعاشرة السليمة الصّافية ، وفي هذه الصورة تتمتع الروابط بين الأفراد بقوّة ودوام أكثر فأكثر . والذين يفقدون هذه الخاصيّة الأخلاقية يفقدون بالطّبع معها التوازن والتعادل بينهم والآخرين ، وتتضعضع لديهم أسس المودّة والمحبة ، ولا يستطيعون حينئذ أن يحافظوا على روابطهم مع الآخرين بصورة مطلوبة .

وأن من إحدى الصّفات الذميمة التي تجرح عواطف الآخرين بشدة ، وتقطّع أوصال المحبّة والوحدة (الجدل واللجاج) إن اللجوج المجادل إن لم يكن يعلم علل سلوكه الجدليّ ولا يعرف العوامل التي تؤثّر في عواطفه وتقلق روحه ، فليعلم أن الإفراط في (حبّ النفس) من العوامل الأساسيّة لنشوء هذه الخصلة الذميمة عنده ، وأنّها إنّما ترتوي من منبع هذه الغريزة المخدوعة .

إن الشّخص اللّجوج المجادل ـ من أجل أن يروي عطش غروره ـ كلّما تكلّم أحد في مجلس ما أو أظهر رأياً في موضوع ما بدأ يعترض عليه لا ليرشده أو يرفع شبهة لديه ، بل ليحطم شخصيّته بانتقاداته غير الصحيحة واتّهامه باللغو وسوء الفهم ولكي يثبت بهذه الطريقة علوّ كعبه وفضائله الموهومة . وقد يستر وجه جدله الكريه تحت ستار من كلمات (الاستفهام) أو (الاستفسار) أو (الاستعلام) أو (الاستيضاح) .

وهو بهذه الطريقة يفقد روح الحكم العادل ، ويتجاسر بها على أنواع الظّلم وسحق الحقوق .

ولا ينبغي الغفلة هنا عن (ردود الفعل) من الشخص المهان على هذه الطريقة الذميمة ، فإنّ من نكست عزّته واحتقرَ لا بد من أن يبدي من نفسه ردّ فعل على ذلك ، فقد يقدم في الفرص المناسبة على أعمال جميع ما لديه من القوى للخروج عمّا تحمّله حينئذ من الإهانة والتحقير وهكذا نرى أن تفشّي هذه الصفة بين أفراد أمّة قد يؤدّي بهم إلى فقد وحدتهم في الفكر والسلوك ويجرّهم

إلى نزاع ممتد وكسر لا يجبر لا سمح الله .

يقول أحد العلماء : « العقل مصباح منير يهدي البشر في ظلم الجهل ويرفع عنه أعباء مشاكله ، وها نحن نفخر على سائر المخلوقات بأنّا ندرك به مقدمات الأمور وعللها وأسبابها ونتائجها وروابط بعضها مع البعض الآخر . ولكن الويل لنا وعلينا لو أردنا أن نكشف عن حقيقة بقوّة البحث والجدل ، فإنّ المناقشة الجدلية لا تؤثر شيئاً سوى اضطراب الفكر والخيال ، ثمّ لا أثر لها سوى أن تبدي جهل الطّرفين وخطأهم في البحث العلمي لا غير ، وأمّا أنّها تقدر على أن تغيّر فكر الآخرين وتجعلهم تبعاً لأفكارنا ، فكلا » .

* * *

لننظر إلى كلمات من القادة :

إن الإسلام نظر إلى جميع جوانب الحياة الإجتماعية وأمعن النّظر في جميع عوامل الائتلاف والمحبّة ، فشدّد النّكير على جميع ما يوجب شقّ عصا المسلمين ويزلزل أركان الائتلاف بينهم ، إن قادة الدين علموا أتباعهم كيف يسلكون سبل الطهارة وينزّهون قلوبهم عن لوث كل رجس ودنس .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من المروءة أن ينصت الآخ لأخيه إذ حدَّثه »[1] .

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : « . . . وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول ، ولا تقطع على أحد حديثه » .

إن قادة الإسلام قد انتقدوا من الجدل في موارد عديدة ، وذكّروا النّاس بالبؤس والتعاسة والشقاء الناشىء عنه ، حتى أنّهم منعوا أتباعهم عن المناقشة الجدلية في الحق أيضاً :

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء ، وإن كان حقاً »[2] .

(١) نهج الفصاحة : ص ٦٣٣ .
(٢) سفينة البحار: ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

ولا ينتصر أحد في ساحة الجدل واللجاج ولا يتغلب أحـد على آخر في صعيد هذا النزاع ، فقد قـال الإمام الهـادي (عليه السـلام) ـ وهو يتكلم مـع الذين يريدون أن يتفوّقوا على خصمهم من طريق المناقشة الجدلية ـ : « المراء يفسد الصداقـة القديمـة ، ويحل العقـدة الوثيقـة ، وأقل مـا فيه أن تكـون فيه المغالبة ، والمغالبة أسّ أساس القطيعة » .

ويقول الدكتور دايل كارنيجي في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في الناس) :

« من كل عشرة مناقشات كلامية يخرج الطرفان في تسع منها وكل منهما أثبت في عقيدته وأرسخ زاعماً أنّه هو المحقّ وطرفه المبطل ولا غالب في هكذا مناقشات إذ لو انهزمتم انتكستم ، ولو هزمتم فلستم بمنتصرين ولا غالبين أيضاً بل مغلوبين مهزومين وذلـك أنّا نفـرض أنّك تـوفّقت وانتصرت على خصمـك فأثبتّ عليه أنه كان مجادلاً جاهلاً ، ثم ماذا ؟ نعم إنّك تفرك أصابعك من شدّة فرحتك بانتصارك ، ولكنك فكر في خصمك على أيّ حال يكون ؟ إذ أنّك قد أشعرته بجهله وجرحت بذلك عواطفه وجعلت بذلك حرقة في قلبه . إن الجدل ليس طريقاً صحيحاً للإقناع ولا للنفوذ في أفكار الآخرين بل لا ربط بين الإقناع والجدل ، ولا يمكن أن يرتفع سوء التفاهم بين الطرفين بالمشاجرة الجدليـة ، بل بالتدبير والسياسة وإبداء النصح وإرادة الصّلح . أنّه ينبغي للرجل أن يكون قادراً على أن يفترض نفسه بمكان خصمه » .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ذروا المراء لقلة خيره ، وذروا المراء فإن نفعه قليل ، وأنه يهيج العداوة بين الاخوان » .

ويقول الدكتور آويبوري : « ليس للجدل كثير نفع ، وقد يقلب مقصـود المجادل للخصم ، إذ أنّ الأحاسيس تتهيج في أثناء الجدل ، فمهما كان الكلام بهـدوء وتؤدة مع ذلـك كان لـه الأثر السيّيء في قلب الخصم ، وحينئـذ فكلّما حـاولنا أن نتغلب عليـه حملناه على الإلحـاح والإصـرار والعنـاد واللجـاج في مدّعاه ، وحينذاك فبإمكان الكلمة الواحدة التي تؤدّى بخشونة أن تقـطع أواصر المحبّة بين الطرفين إلى الأبد . أضف إلى ذلك أنّا لن نستطيع أن نقنع الآخرين

ونجعلهم يتبعون أفكارنا بالمناقشة الجدليّة أبداً »[3] .

إنّ المجادل لا يشعر بقلبه الأمن والاطمئنان بل بوخز في فكره وشعوره فقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) : « إيّاكم والخصومة ، فإنها تشغل القلب ، وتورث النفاق ، وتكسب الضغائن »[4] .

وبناءً على ذلك ، فبالتوجّه إلى التعاليم الإسلامية السّامية نستطيع أن نمهد الطريق لأنفسنا إلى ثورة نفسيّة في الخصائص والصفات الروحية في سبيل التّبعية الكاملة للأصول الإنسانية العالية . وبالله التوفيق وعليه التّكلان .

تمّ تعريب هذا الكتاب في المؤسسة العلمية لولي العصر (عج) في (خوانسار) صيف عام ١٣٩٧ هـ .

اليوسفي

---

(٣) عن الفارسية : درجستجوي خوشبختي .

(٤) الأصول من الكافي : ج ١ ، ص ٤٥٢ .

الفهرس